سعيد حورانية

سنتان وتحترق الغابة



منشورات







سعيد حورانية

سنتان
وتحترق الغابة

منشورات







منشورات





اسم الكتاب : سنتان ومحترق الغابة
المؤلف : سعيد جورانية
الطبعة الأولى ١٩٩٤ / ٢٠٠٠

تصميم : محمد سعيد الصكار
التنفيذ : هند الخضر
الطبع : بيروت - تكنوبرس
الناشر : دار المدى للثقافة والنشر

دار المدى للثقافة والنشر

سوريا - دمشق صندوق بريد : ٨٢٧٢ - ٧٣٦٦ - ٣٣٠٣٩
تلفون : ٧٧٢٠١٩٠ - ٧٧٦٨٦٤ - فاكس : ٧٧٣٩٩٢
بيروت - لبنان صندوق بريد : ٣١٨١ - ١١ فاكس : ٤٢٦٢٥٢ - ٩٦١١

Publishing Company F.K.A.
Nicosia - Cyprus , P.O.Box . : 7025
Damascus - Syria , P.O.Box . : 8272 - 7366 - 33039
P.O. Box : 11 - 3181 , Beirut - Lebanon, Fax : 9611- 426252

اهداء

إلى السنديانة الصامدة
التي ترمز إلى روح شعبنا
هذا الشعب الذي تألم أكثر من
كل شعب

إليك ياأبي . . .
أيها الثائر القديم!

أقدم هذا
الكتاب

مقدمة

نشيدٌ متعدد الأصوات

لكأنه طقسٌ احتفاليٌ ،ذلك الصدور الأول لـ «سنتـان وتحتـرق الغابـة» . غلاف ميشـيل المير ، سورياليّ ، حتى بمقاييس أغلفـة كتبنا هذه الأيام : حدقة زرقاء تسبح في بياض يُسوّره جفنٌ أحمر . العين مقسـمة ، من الوسط تماماً ، على غلافي الكتاب . ميشيل المير يدقّ توقيعه مثل اسفين في الزاوية اليمنى من الغلاف الأخير ، حيث يمتد طريق أحمر . خطوط الغلاف : عنوان المجموعة ، واسم سعيد حورانية ، حزّةٌ تستلهم الأعواد الجافة . وخمسة فنانين اقتسموا لوحات الكتاب الاحدى عشرة : فاتح المدرس ، ميشيل المير ، رضوان الشهّال ، ابراهيم هزيمة ، د . سليمان قطاية .

المطبعة : مطبعة جوزيف شمالي - الأشرفية - شارع المطران غفرائيل - قرب كنيسة السيدة .

الناشر : دار العصر الحديث - بيروت

أما تاريخ الطبع ، فغائبٌ ، كأن النشيد عصيٌ على الزمن محدّداً محدوداً!

* * *

الطقس الاحتفالي كان ذا مغزى .

إنه الكتاب الأول لسعيد حورانية إثْرَ محنة قاسية قبل عام من تاريخ القصة الأولى في المجموعة «المهجع الرابع» .

* * *

وقبل المحنة القاسية بعامين ، أي في العام ١٩٥٧ تحديداً ، كنا في دمشق . . .

لقد خلّفنا «غاشية الخنوع» وراءنا .

وكانت دمشق تحفر خنادقها .

وكنا نرى ماحولنا عجباً .

أنذاك عرفنا سعيد حورانية ، وكان يعمل مع رفقةٍ له في «الجندي» مجلة الجيش العربي السوري ، ويطلّ بين حين وأخر من برنامج إذاعيّ أظنه يعود إلى إدارة التوجيه المعنوي .

العلاقة مع سعيد منحتنا أفقاً أرحب ، وأدخلتنا دمشق الواسعة ، لامن باب مقهى «الهافانا» فقط ، وإنما من أبواب عديدة عرف سعيد كيف يجعلها مشرعةً أمامنا .

وكانت الابتسامة ، ابتسامته الدائمة ، إحدى هذه الأبواب .

قصتان فقط ، من قصص المجموعة العشر ، مؤرختان : المهجم الرابع في العام ١٩٦٠ ، وثلج هذا العالم في العام ١٩٥٣ .

وأرجّح أن تنضم قصتا «محطة السبعا وأربعين» و «الجوزات الثلاث» إلى «ثلج هذا العالم» في الاقتراب من ١٩٥٣ ، نظراً إلى الخيط الناظم للقصص الثلاث ، أعني المدرِّس المترحِّل في القصبات السورية بسبب آرائه السياسية .

إن سعيد حورانية ليس بغزير الكتابة ، إلا أن أواسط الخمسينات كانت فترة خصب ممتازة ، تنتسب معظم قصص المجموعة إليها ، باستثناء «المهجم الرابع» .

* * *

القصص العشر ، جميعها ، معنيّة بالهاجس العامّ الذي يبلغ مكشوفيّةً صارخة حيناً ، في «المهجم الرابع» و «محطة السبعا وأربعين» و «من يوميات ثائر» ، أو يخفت في ما يشبه الهذيان حيناً آخر ، كما في «الخفّاش يفتح عينيه» ، و «مشروع إنسان» .

غير أن الهاجس العام يظلّ مشخّصاً . إن منصور الميداني ، الفرّان ، وهو المنقذ الفني لقصة «المهجم الرابع» ، إذ تجسّدت ، فيه ، وبشخصه هو ، المأساةُ المخيِّمة على معتقلي المزة ، ولولاه لكانت القصة مجموعة تخطيطات سريعة لعدد من المعتقلين .

وفي «من يوميات ثائر» وهي من أجمل قصص المجموعة (اللغة عنصر جمالٍ أساسيّ هنا) نجد الشيخ الأشمر حيوياً في تفاصيل حركته ، وبين أصحابه التسعين من «شباب الميدان» . . إنها الثورة مشخّصةً .

في «محطة السبعا وأربعين» نرى فساد الأجهزة واضطهادها الفلاحين مشخَّصاً أيضاً في مفلح الجدعان ، ضابط الدرك الذي «استطاع الحجز على أرض كبيرة واسعة بين أراضي جبورة والبقارة ، ثم اشترى بعض القضاة فسجّلوها باسمه ، فلما أحيل على التقاعد ، لجأ إلى أرضه يوسعها . وبمعاونة دركه السابقين صار يقتطع جزءاً من الأراضي المحيطة به ، حتى استطاع أن يصبح من هؤلاء العشرات الذين يملكون أكثر من مائتي ألف دونم» .

الزحف الهمجي على الريف ، واقتطاع أشجاره ، في الهجمة العقارية مجسّدٌ ، ومشخَّصٌ ، في «الجوزات الثلاث» وأبي صلاح الذي ظل يرعى الشجرات الثلاث ، ويسقيها ، ثلاثين عاماً ، حتى أتى عليها ، وعليه ، الدهرُ القاسي .

إن جوقة سعيد حورانية ، متعددة الأصوات .

* * *

أكيدٌ أن أدوات سعيد حورانية كانت ستتطور أكثر لو أتاحت له الحياة قدراً من الاستقرار والتفرغ .

* * *

في هذه الطبعة الجديدة من «سنتان وتحترق الغابة» وفاءٌ لسعيد حورانية ، الانسان ، والمكافح ، والرائد في القصة القصيرة ، السورية ، والعربية .

وفاءٌ لرجل ظل محبّاً للحياة ، مقاوماً للموت ، حتى النهاية .

سعدي يوسف

دمشق في ١٩٩٤/٦/٢٠

المهجع الرابع

«إن من الممكن قهر الانسان ولكن من المستحيل تدميره»
(هيمنجواي)

آ-آ-آ-آه!!

صرخة حيوان مطعون . . مزّقت كشفرة مُرهفة ، سكون ليل أصم ثقيل ذي نجمة يتيمة . انطلقت من الغرف الخارجية لسجن المزة . فدخلَت الأبهاء المعتمة ذاتَ الرائحة المتفسخة بسرعة عجيبة . مسحت بيدها المكهربة الراعبة الجدران ، وهزت أبواب الزنزانات الانفرادية ، ثم تسلقت السلالم التي عبدتها الأقدام الثقيلة الدامية ، ومدت مخالبها إلى المهاجع المكتظة بمئات النائمين بعيون مطفأة على الحقد والعذاب ، وغرستها في الجروح الطرية التي لم يستطع النهار تجفيفها بعد ، وحبست في الحلوق اليابسة الأنفاس .

وانفتحت الجفون على النور الباهت المهزوز ، وارتفعت رؤوس بالغة البشاعة ، ووقفت هنيهة منتصبة الآذان كخيل أحست بالخطر ، حتى إذا تكررت الصرخة مرة ثانية وثالثة ، ارتدت إلى مراقدها متلملة ، وتنهدت بألم وفهم . . لقد ابتدأ التحقيق!! .

وبالرغم من أن السكون العميق قد استمر ، لاتقطعه سوى هذه الصرخات الطويلة المألوفة ، فإن شيئاً في المعتقل قد تحول! شيئاً كان يجري في كل نفس . . تحولٌ يعني أن العدو هناك ، في الأسفل ، قد استفاق جائعاً إلى اللحم ، فأطلق نفير المعركة ، وهاهو ذا يهيىء أسلحته ، ويبري أظافره ، ويصقل مديته ، وأن واحداً من هذه الكومات السود النائمة سيستدعي بعد

قليل إلى الوليمة الدموية : واحد مجهول ، أنيس ، في رأسه الحليق أفكار مقلقة ، وسيحاول الأعداء فتح جمجمته بالسكاكين ، وسيمدون أصابعهم القذرة داخل الأوردة والشرايين بعصبية ، يفتشون ويفتشون كي يستأصلوا الشرارات النابضة ويطفئوها . . ثم يطبقون العظام على الظلام .

في تلك اللحظات ، كانت وحدة عجيبة تمزج بين هذه النفوس المعذبة الصلدة ؛ فينسلخ كل واحد عن ذاته ليذوبَ في الآخرين ، ويصبح كتلك القطرة الصغيرة في البحر الزّاخر . . قطرة صغيرة ، ولكنها تحمل كل معاني البحر : كلَّ عمقه وكلمته ، كلَّ شفافيته وسحره ، كلَّ أمواجه وثَبجه . وبدا السجن الكبير كقاعة ضخمة تُعْزفُ فيها موسيقى همجية لآكلي لحوم البشر . وكان المستمعون يحسنون الاصغاء ، دافعين نحو الأعماق عواطفَ حاقدة ، يجوهرونها ويزقون في عروقها الدماء . وكانت الأسنان تصر حتى لتتحطم ، وكانت الأعصاب تُشَدّ حتى لتتقطع أوتارها . إنه لمن المريح أن تعرف أن عدوك دون شرف ،دون رحمة ، دون حبّ . . وعند ذلك سَيَبْهَرُكَ أن تقاتل ، وستتلبسك روح الانسان الأول ؛ روح سارق النار ، ومنتزع الأرض من الغابة ، ومرسي الأعمدة في وجه الزلازل . . إنها معركة أبدية ضد وحوش الطبيعة .

وارتفعت أصوات الحرس المحيطين بالتلال المطلة على السجن ، أصوات تضاف إلى الموسيقى كجوقة من الذئاب ، ويصيح الواحد (جاهز) تدوي بها القيعان ، وينتظر حتى يتسلم الصدى رفيقه ، وهاهي (جاهز) أخرى تمسح الأبعاد وتلحقها ثالثة ورابعة حتى تتم الدورة . جاهز . . جاهز . . جاهز!!

وتقصرُ المسافة الزمنية بين الجاهز والأخرى ، فإذا هي تختلط وتتشابه ، فلا تسمع سوى صرخات بدائية للحرب ، حاجبة عن العالم الخارجي عذاب الفريسة ، ملقيةً دونه ستاراً مسرحياً يُظن معه أن الزمن قد عاد إلى الوراء ألوف الأعوام ، وأن المتفرجين الأغبياء المتعطشين للدم ينتفضون بلذة وهم يرون الأسود تغرز أنيابها في أجساد عارية رُبِطتْ إلى الأعمدة .

وانقطعت الموسيقى فجأة وسكت العواء ، وساد سكون أصفر شاحب كالموت .

وعرف الجميع معنى هذا السكون!

وتصاعد من المهجع الرابع صوت عويل بدأ خافتاً متقطعاً ثم أخذ يشتدّ . فتقدم الحارس بخطوات متلصّصة حتى وقف خلف قضبان النافذة ، ثم قال بصوت لاحس فيه :

- مَن الذي ينبح ؟

فأطلقت كومة ملفوفة بالبطانيات عالقةٌ ، في إحدى الزوايا المعتمة أنّةً معذبة ، وانبعث منها صوت متقطع :

- كرامة لله . . خذو . . ني . . إلى المسـ . . تشفى!!

ولان صوت الحارس قليلاً :

- ولك ياحسين . . ستموت هنا ، مستشفى هاه ؟ أتطلب ممرضة أيضاً ؟

- كرامة للحبيب . . جروحي تتعفن .

- هذه آخرة الأفكار ووجع الرأس ، سيأكلك الدود ، خلِّ واحداً من هؤلاء الدكاترة (وأشار بيده إلى ستين كومة راقدة) يفحصك ويعطيك الدواء!!

ارتفعت عدة رؤوس من الكومات وشاركت في الحديث :

- اصرخ للممرض يابو علي . . أنت قلبُك لله .

- الممرَض فل .

- هل تتركون المريض يموت ؟ أيّ حكم هذا ؟

وصرخ أحدهم :

- حكم وحوش!!

وأردف الثاني :

- حكم كلاب!!

تغيّرت ملامح أبو علي بسرعة ، ونظر نحو الممر المعتم خائفاً ، ثم صاح :

- عالسكت . . العمى . . حرام أن يعطيكم الواحد وجهاً .

ثم طامن من حدة صوته :

- العمى . . لاتخربوا بيتي . . اللجنة تحت .

وسُمِعَ صوتٌ مستعجل بعيد :

- أبو علي . . أبو علي . . لك وينك يامسطول ؟ . .

- ايوه سآتي حالاً ، استعدوا يابني آدم ، إذا طلبنا واحداً ولم يكن قد لبس ثيابه بعد!! أنتم تعرفون ماأعني . .

وفهم الجميع مايعني جرُّ شخص من المهجع على وجهه حتى الطابق السفلي . وهدرت صيحة أبو علي في الممر هازّةً ستةً من مهاجع الطابق العلوي :

- استعدوا . .

وركض مختفياً .

وفي لحظة واحدة ، دبَت الحياة في السجن كلّه ، وسمع دويّ كدوي النحل .

ووقف ميشيل سليم ، روحُ المهجع ، وهو أستاذ ريفي تقول عنه اشتقّ من جذع سنديانة أو من فلذة صخرة ، ونظر إلى الحركة الدائرة حوله ، ثم قال وعيناه تبرقان بحيوية :

– ياله من مخيم يتأهب للرحيل .

وسُمِعَ صوت :

– الرحيل إلى الأبدية!!

وتابع ميشيل :

– سمَّكوا . . سمَّكوا . . ضعوا المناشف تحت القمصان ، ستحميكم على الأقل من سياط الطريق . .

وضحك مقهقهاً في عصبية

قال حسين متأوهاً :

– إذا طلبوني اليوم . . فلن أستطيع المسير .

فأجابه العامل محمد صالح وهو يحاول دسَّ قدمه المتضخمة في الحذاء عبثاً :

– ولو ياحسين . . سيحملونك على محفَّة كملوك المصريين!!

فأضاءت وجه حسين المتقلص ابتسامة شاحبة :

– وسيقدّم لي عبد الوهاب الخطيب(١) فنجان قهوة سكَّره قليل مع حب الهال .

ونهض المحامي سليمان الحلبي وهو يتمطى ويشد قامته النحيفة كعصا ويقول :

– هذه هي الحفلة . . يظهر أن الدنيا بخيرفي الخارج .

فتدخل مهندس صغير الجسم مربع الوجه زنبقي العينين كان قد اعتقل منذ أسبوعين فقط :

– لقد قلت لكم . . لقد قلت لكم . . (حملة) العراق فشلت ، وأُجَراء (الامبراطور قُتِلوا ، وفلولهم جاءت تحمل الألوية الممزقة ، ومعلمهم يملأ الدنيا صراخاً وبكاءً ويزور المقابر .

قال ميشيل وهو يفرك يديه بفرح :

– ثم ان منشوراً جديداً قد وُزِّع . . منشور من كعب الدست .

---

(١) مدير المخابرات العامة ، ورئيس لجنة التحقيق .

فقال محمد صالح وهو لايزال في محاولته إدخال قدمه في حذائه :
- ١+١=٢ . . ستترجم كلماته سياطاً على أجسادنا .
أجابه ميشيل :
- وسيلسعوننا بالكهرباء كما لسعهم المنشور
فتدخل بقال في الستين من عمره وهو يتحسس أصابع قدميه ويرتجف :
- لاتذكروني بالكهرباء . . يضربني العصبي فوراً .
قال محمد صالح ساخطاً يائساً :
- اللعنة على هذه القدم . . لقد زادت خمس نمر
فأجاب المهندس ضاحكاً :
- كل الأجسام تتمدد بالطرق والحرارة وقد «طرقوك جيدا» .
فنظر محمد صالح نحو المهندس ذي الحجم الصغير ورمش بعينيه الدكناوين قائلاً :
- هذا من حسن حظ مهندسنا ، سيخرج من السجن وقد صار في طول صوفيا لورين ، وعرض محمد الحريري!!
وضحك الجميع وقاطعهم المهندس قائلاً
- لاتحسدوني . . على كل حال فقد أعطتني أمي حجاباً قبل أن أعتقل ضد الحسد ، وضد الفالج والطاعون . . و . . وأشياء أُخَرُ .
قال حسين متنهداً :
- أعرني إياه لألقيه في وجه عبد الوهاب الخطيب
- حبيبي . . هذا سر العائلة فقط .
وساد صمت قصير قطعه فجأة بكاء هستيري من إحدى الزوايا ، وتأوّه البقال دامع العينين :
- وصلنا لزمن نُضربُ فيه والشيب غطى رأسنا ؟ عين أولادي ترى أباهم وهو يهان من أسفل خلق الله .
ونظر إليه رفاقه ساهمين ، وانطفأت في عيونهم تلك الغبطة المسروقة اتي منحهم إياها اقتراب المعركة . . وتضامنهم الذي لامثيل له أمام الخطر ، وأحس كل منهم فجأة بثقل صليبه . . نظروا من خلال النافذتين الوحيدتين إلى الليل العميق في الخارج ، وتذكروا عالماً بعيداً . . بعيداً كادوا أن ينسوه . . عالم الضوء الغامر ، والعيون التي لايقف في امتداد بصرها جدران ، عالم أمّ تضمّ طفلها ، وحبيبة تعانق إلفَها ، عالم الضحكات المجلجلة من نفوس معافاة ، عالم الأناس الأحياء .

وصاح أحد الحرس من بعيد :
-جاهـ . . ز
فاندفعوا بثيابهم إلى بطانياتهم وغابوا تحتها إلى منتصفها وأسندوارزؤوسهم إلى الحائط ، وانتظروا .
وساد السجنَ كله صمتٌ ثقيل ، لايسمع فيه الواحد منهم سوى دقات قلبه المتضخّمة وأنفاسه المتقطّعة المبهورة . . لقد دقت الساعة .
وسُمِعَ وقعُ أقدام كثيرة . . كثيرة . . تصعد السلالم ، فعرفوا أن قراقول العذاب قد اصطفَ صفين متوازيين من المهاجع حتى غرفة التحقيق ، وأن كل من سيُستَدْعى يتحتم عليه أن يمرّ ضمن الشريط ليتلقى عشرات السياط والأحذية واللكمات في ذهابه ، وليجرّ كتلةً دموية فاقدة الحسّ في إيابه فيما إذا قال للجنة التحقيق المجتمعة تحت : لا!!
وأطلَّ الحراس من المهاجع ، وأضاءوا النور ، فبدت وجوههم معروقة متشنجة ، وانتصبت آذانهم ، واتسعت مناخرهم . . كلاب صيد تتشمم من بعيد رائحة الطريدة .
حتى أبو علي الذي اعتاد أن يحدث المساجين عن بؤس حياته وعن احتراق ابنه ، وعن أطفاله الذين يأ كلون الراتب دفاتر وأقلاماً وكتباً ، استلبت منه هذه اللحظات ، ماتبقى على وجهه من إنسانية ، وبدا كوجوه الواقفين قربه « مسنّناً صغيراً في هذه الآلة التي خنقوا في أعماقها الاحساس ، فأصبح القتل عندها احترافاً ومهنة وتنطق قسماتها الشمعية بالبغض والسادية ، وتبرق من عيونها أشعة باردة زجاجية .
وقفز الرقيب بيطار نحو المهاجع صائحاً في الحرس بعصبية من يشعر بأهميته :
– افتحوا الأبواب . . افتحوا الأبواب . .
وتأهب جنديان ومدّا بندقيتهما من خلال النوافذ بينما صرّت المفاتيح في الأقفال العتيقة ، فأخرج الرقيب من جيبه ورقةً كبيرة وتابع بنفس اللهجة :
– كل من يطلع اسمه ، يخرج من المهجع كالبرق ويصطف بالممر دون أية كلمة . . ومن يتأخر . .
ونظر إلى رؤوس ضحاياه دون أن تلتقي العيون ، وسكت تاركاً للكلمة تأثيرها ثم نبر :
– نزار عريف . .
وأجاب صوت نحيف مذعور

- حاضر
- زهدي أشموني . . حاضر . . ميشيل عربي . . حاضر . . زكي فارس . .
ولم يرد أحد
- زكي فارس ؟ . زكي . . أين هذا الـ . ، ؟ ولك زكي . . أبو علي دُرْ عليه في المهاجع تحت .
وانطلق أبو علي كالقذيفة .
- محمود عيسى . . حاضر . . حنا ابراهيم . . حاضر . . بدون أصوات ياأوادم ، اصطفوا هنا . . ورنّت صفعةٌ على خد الدكتور محمود عيسى . هنا . . هنا . . كلمة واحدة . . قال دكاترة قال . .
الحمار من كلمة واحدة يفهم . . لك آه . . إلى متى نتعب في تعليمكم ؟ فادية شربجي . .
واحمر وجهه من غلطته ، وابتسم بعض الجنود وهم يرون رقيبهم يخلط بين قوائم المعتقلين والمعتقلات .
سامي أسود . . حاضر . .
وعاد أبو علي :
- لم أجده حضرة الرقيب
- در عليه في الزنزانات
- حاضر . .
وانطلق من جديد .
- حسين دوماني ؟ حسين دوماني . . لماذا لاترد ياأستاذ
فأجابه حسين متأوهاً :
لاأستطيع التحرك
- اشحطوه على وجهه
واندفع الحراس لتلبية الأمر ، لكن شيئاً ما أوقفهم ، شيئاً رهيباً غامضاً قرأوه في الأعين الغاضبة ، والرؤوس الحليقة ، والأفواه المرتجفة التي تعلك اليأس .
قال الرقيب بيطار ممتقع الوجه في بحة خفيفة تشبه همس غرام :
- ساعدوه على المشي
وانتظر بصمت حتى إذا حُمل حسين وهو يتأوه ووضع خارجاً في الصف مستنداً عى جدار عاد أبو علي فارغ اليدين ، فزمجر الرقيب :

- أين زكي االشرمو . . هذا ؟
وجاء حارس جديد مسرعاً ، وهمس في أذن الرقيب كلمتين فاصفر وجهه وتطلع حواليه خائفاً من أن يكون أحد قد سمع شيئاً وتنحنح :
- . . زكي فارس بالمستشفى . . طيب . . أحمد فؤاد . . حاضر .
وتوالت قراءة الأسماء ، واصطف المعتقلون في الممر العريض ، هادئين ، لاتميز أحدهم من الآخر ، مطبقين أسنانهم في وجوم ، وطوى الرقيب و رقته قائلاً :
- يكفي هذا الآن . . أغلقوا الأبواب ، واطفئوا النور .
ثم التفت نحو المهاجع مهدداً :
- الكل تحت بطانياتهم ، بدون أي صوت ، كل من يرفع رأسه من تحت بطانيته سيرى نجوم الظهر .
وساد الظلام ، وسُمع صوت الرقيب وهو يراجع الأسماء ثم بدأ المسير . . حتى إذا تلاشى وقع أقدامهم من الممرّ ، ارتفعت ضجّة عظيمة ؛ وشقّت الأنّاة والصرخات الجدران السميكة . لقد هجمت الذئاب الجائعة ، وابتدأت المجزرة .

* * *

عندما بدأ مئة وستون معتقلاً مسيرتهم الكبرى داخل سكّة العذاب بين صفيّ الحرس ، سيطر على السجن كلّه جوُ اسطوري لايوصف . فبدا كغابة مكتظّة اشتعلت فيها النيران ، فاندفع مَنْ فيها من الأحياء وهم يصرخون ويثبون ويتدحرجون ويغرزون أظافرهم في الشجر ، محاولين في جنون ويأس التخلصَ من سدّ النار الآكلة ذات مئات الأيدي والأرجل الممتدة بالسياط ، والأحذية الثقيلة والسيور الجلديّة ، والعِصيّ العَقْداء تضرب وتضرب . . متشنجة ، عاوية ، مزبدة الأشداق ، قد عَمِيَتْ منها العيون وتقطعت الأنفاس واصفرت الوجوه ، وأهاجتها رؤية الدم النافر فأشرعت قرونها ، دافعة إياها بعيداً بين الأضلاع .
وغدت الأصوات أكثر عمقاً وأبعد صدى . . ولولة نساء ، ورنين حديد . زنزانات تفتح وتغلق بعنف ، وخبط مكتوم على الأرض والجدران ، وضحكة مجلجلة من غرف التحقيق ، يحيط بهذا كله حزام من الحرس الخارجي يمنع أصداء الجحيم :
- جاهز . . جاهـ ـز . . جاهـ ـ ز .

ويصل قطار العذاب إلى نهايته عند غرف التحقيق ، حيث وقفت ساقان طويلتان تحملان رأساً أشقر ذا عينين مبتهجتين ، وفم مكشّر عن ابتسامة سعيدة جداً ، ابتسامة كان من الواضح أنها لم تصل إلى هذا الوجه الذي كان يتسلى برؤية هذه الأشلاء الآدمية المُذَلّة الخارجة من معركة غير متكافئة ، إلا على أكداس من حقد أسود طويل عتيق عتق عنكبوت في قبو مهجور .

ونظر إليه المعتقلون ، فخفتت آهاتهم ، وتحاملوا على أنفسهم وأخذوا يحدقون فيه وعيونهم الغائصة في كتل متورمة من اللحم الأزرق المحمر ترسل وميضاً أصفر فيه من الدهشة بقدر مافيه من الحقد . . إنه لمن المدهش أن يتأمل المرء إنساناً جميلاً إلى هذا الحد وحيواناً إلى هذا الحد أيضاً .

وظلّت العينان المبتهجتان تنتقلان بين الوجوه الدامية والثياب المشققة ، وبدت فيها حيرة خفيفة :

– تُرى ماسر قوة هذه البقايا الآدمية ؟

وصرّ الشخص الجميل جداً على أسنانه ، وانطفأت عيناه وأرسلتا شرارات الكراهية :

– أدخلهم حسب ترتيب الأسماء يارقيب بيطار .

واستدار إلى مكتبه ، ماراً بغرفتي التعذيب الجرداوين إلا من أدوات باردة حديدية ، فربَّتَ عليها بقليل من الفرح ، ذلك أن أمله فيها بدأ يتناقص يوماً بعد يوم :

– إنها تصدأ . . سنزيّنُكِ اليوم . . يوجد مقدار كاف من الدم .

وضحك . . تلك الضحكة المفتعلة المدروسة التي يعرفها المعتقلون جيداً ويستبشرون بها كثيراً ، إنها ضحكة رجل غاضب مقهور .

وماكادت الضحكة المتشنجة الغريبة الأليفة تتسلل من بين الشقوق ، هازّةً معها أنسجة العنكبوت الكثيفة ، حتى ارتفعت (جاهز) سوراً يلاحق الأصداء حول المعتقل فيردُّها . لقد رفع المايسترو عصاه ، فرآها الحرّاس المدربون ، وشموا رائحتها النتنة ، رائحة اللحم المحترق . نسوا ماكانوا يحلمون به وهم على مشارف دمشق يحدقون في النجوم ، لقد كانت الضحكة تنتزعهم بعنف من مملكتهم البخيلة المسروقة من بين (جاهز) وأخرى ، كأنما تذكرهم دوماً بأنهم ليسوا ملك أنفسهم ، لقد باعوها للشيطان منذ أن وطئت أقدامهم أول درجة في المعتقل ، ومنذ أن رفعوا باستحياء وتردد وتهيب أيديهم لأول مرة ، واكتشفوا أن لها مهمة أخرى غير شق الأرض وبذر الزرع وإمساك النورج وإدارة الآلة . وهاهو ذا سَوْطٌ بين الأصابع التي باركها الترابُ ذات يوم ، ومع

كل ضربة ، كان شيءُ ما ، لزجُ وبغيض ، يطفو على ينابيع نفوسهم ، وشيئاً فشيئاً غاض الينبوع ، وبدأ العطش النفسي يعذبهم ، وبدأت الضحكة تلاحقهم في أعماق وحدتهم ، في المحارس المنتشرة على الهضاب المحيطة بالسجن .

وفي بعض الأحيان كان واحد منهم ينظر نحو بلده في أقصى الأفق ، ويتذكر زوجة له أو حبيبة ، يتذكر الدبكة يضرب بها الأرض حتى ليكاد يخرقها ، ويتذكر مجوز الرعاة وهو يجرح الأفق العاري المخضّب . فتندى عيناه ، وتنفرج شفتاه عن ربع ابتسامة ذلك لأنه نسي كيف يبتسم للناس ، ويغوص في حلم صغير ، وقد ينطلق صوت دافىء من هنا وهناك في أثر من أصالة ، ويتسرب خيط من ماء الينبوع المردوم :

ياديرة مالهاش مثيل بسهولها وجبالها

حلق العدا يشرق دمَا وقت اللقا إحنا لها

ندراً علينا ياسما . . .

وفجأة يقطع الصوت ببلطةٍ حادة ، وتنطلق الضحكة حيوانية جائعة ، فيلتوي الصوت كغصن زهرة ، ثم يشحُب وينقصف . وتمتلىء الدنيا أمام عين الشادي بالسواد ، وتحدجه نجمة يتيمة بقسوة وبرود ، فينتفض وتبرز منه الأظافر ، ويفغر الفم ، وتنقبض اليدان على البندقية .

لقد جاء وقت حقنة الدم ويصرخ :

– جاهز . . جاهـ ـ ز .

المعتقلون قابعون وراء أغطيتهم ، قلوبهم تدق كالمطارق ، وأرجلهم تمشّي إليها الشلل ، ، يسمعون من بعيد رهج المعركة والضحكة التي تزداد عصبية وحنقاً ، والآهات المتقطعة التي تنتزعها الكهرباء .

وعاد محمد صالح إلى المهجع ، ودخل متقطّع الأنفاس متدحرجاً على الأرض إثر ركلة ثقيلة ودّعه بها الحارس ، وانتظر دقيقة ، ثم تحامل على نفسه ووقف يجفف الدماء عن وجهه ويديه وحاول جاهداً أن يبتسم من خلال دموع حمر ، ونطر المهجع الرابع ابتعاد الحارس ثم رُفعت الأغطية وقفز إليه أكثر من واحد .

– ايه . . من أولها .

– يحرق دين أولها وآخرها ، لولا أنني معتاد على الهبش واللبش لانتقلت هذه الليلة إلى رحمته تعالى .

وتناثرت الأسئلة .

- ماذا قالوا لك ؟ ماذا قلت لهم ؟ هل كهربوك ؟ هل أخذوك إلى الحمام ؟ صحيح فيه خازوق ؟

- العمى ، . . أف . . روقوا شوي ، أين الميركوركروم ؟ اللعنة . . إنني لاأسمع شيئاً بأذني اليمنى ، لقد ظنها أحدهم فطيرة فحاول انتزاعها بأسنانه ، ولم أنقذها إلا بأعجوبة . . اسمعوا . . لقد جاء أحدهم .

وبقفزة واحدة كان الجميع تحت أغطيتهم ، وفُتح البابُ ودُفع إلى المهجع حنا ابراهيم مُلطخاً مشوهاً كأنه مشروع إنسان لم يتم بعد .

وانهار حنا في أحد الأركان وأخذ ينشج بعنف .

ورفع الجميع رؤوسهم وأخذوا ينظرون إليه بأسى :

- ولو ياحنا . . بسيطة ، البكاء للنسوان . . أنت رجل . . أنت معلمنا . .

وصرخ أحدهم :

- بدون دروس سخيفة دعوه يبك . . هذا يهدىء .

- ليك العالم النفساني الخطير ليك!!

وتابع حنا نشيجه بصورة أهدأ ولكن بدون انقطاع ووجم الجميع ، فحنا من أكثر المناضلين بأساً ، ولذلك كانت الدهشة عامة وتوتر الجو وشُحن بالهمسات .

قال محمد صالح قاطعاً الصمت :

- أتعرفون أبو محمود ؟

فأجابه ميشيل :

- أبو السبعة أولاد ؟ الضخم ؟

- ايوه هالشّيخ الستّيني ، مسكين لادخل ولاخرج ، لايعرف القراءة ولا الكتابة . . تشكى ذات يوم من غلاء الأسعار فجاء إلى هنا وبرأسه عشرة جروح!!

- هل رأيته تحت ؟

- رأيته . . كان دوره قبلي . . آه إنني أنزف .

وخلع قميصه فشهق الجميع ، لقد كان ظهره لطخة حمراء دامية ، . . أية قوة خارقة تكمن في هذا الجسد المشوّه .

- لاتتحرك . . انبطح على ظهرك . . سنغسل الجرح بالميركوركروم

- انبطح على صدري ؟ وهل حالة صدري أحسن ؟ أولاد الكلب ، لكأنهم يضربون حجراً . . على مهلك ياميشيل حرقت ديني . . عاش الدواء الوحيد في سجن المزة العسكري . . أبو محمود .

-إي

- أنتم تعرفون أن وزنه يقارب المئة كيلو ، لقد جعلوه يمشي على أربع ، ثم ركب على ظهره ثلاثة ، وصاروا يسوقونه كالحمار ، وأجبروه وهو على هذه الوضعية أن يغني لهم أغنية (وحدة مايغلبها غلاب) فصار يقرأ آيات من القرآن فخبطوا رأسه بالأرض حتى أغمي عليه .

وساد صمت كان يقطعه نشيج حنا الذي انخفض جرْسُه

- وبعد أن آفاق تعرفون ماذا سألوه ؟

-ماذا ؟

- سألوه : أنت مركزي أم منطقي ؟ وتصوروا المسكين وهو يستفهم منهم عن معنى مركزي ومنطقي فضربوه ثم شحطوه إلى سيلول (أبو ريحة) .

قال ميشيل بأسى

- ليس هناك من يطعم أولاده السبعة

ولاحظي المحامي سليمان

- سورة كلها هنا . . وأنت يامحمد ماذا طلبوا منك ؟

- كالعادة ، ولكني رفضت هذه المرة بصورة أقسى ، وكان ماترون .

وتساءل المهندس :

- أين الأستاذ سامي ؟ . . . تأخر كثيراً

فوجم محمد صالح قليلاً ثم قال بصوت منخفض :

- لقد خرج من السجن .

وارتفعت الأصوات دَهِشةً :

- خرج ؟

وركض سليمان نحو محمد صالح :

- ماذا تقول ؟

- لقد وقّع على ماقدموه إليه ووعد بالمساعدة ، سمعته يطلب من الحارس إخراجه فوراً دون أن يأتي لأخذ أغراضه ، لقد كان يتحاشى النظر إلى عيون رفاقه .

ونظر المعتقلون بعضهم إلى بعض بصمت ، لقد هوت ورقة أخرى من أوراق الشجرة الضخمة ، ورقة أخرى تصفرّ وتسقط أمام العاصفة .

وارتمى المحامي متهالكاً على الأرض كمن أصابته لكمة قاضية ، لقد كان سامي صديقه الشخصي المحبب ، ثم قفز وصار يمشي في الميدان (١) بعصبية :

---

(١) الميدان ممر صغير في القاووش يفصل بين صفين من المهاجع

- اللعنة . . اللعنة على كل هذا . .

وقال ميشيل بسخط :

هُرّوا . . هُرّوا . . يارفاق الطريق . . ترحموا عليه . . مات . (والتفت نحو حنا) كفى ياحنا ، هل تقضي الليلة في البكاء ؟

ورفع حنا رأسه :

- هل تظنون أنني . .أبكي على نفسي ؟ . . لقد قتلوه

فقال سليمان مبهوتاً :

- قتلوا من ؟

- لقد رأيتهم . . يلفّونه ببطانية ، ووجوههم مصفرّة مذعورة . . لقد قتلوه . . لقد قتلوه .

وصرخ ميشيل :

- ولكن بحق العفاريت . . عمن تتكلم

- ضربوه على رأسه بالعصا . . نزعوا ضرسين من فمه بالكماشة أحرقوا رجليه بالشمع ، لقد كان يحشرج . . لقد سمعته . . لقد قتلوه . . أخذوه إلى المستشفى للتغطية . . ولكنهم قتلوه .

لقد كان واضحاً أن حنا يعاني نوبة فظيعة وكأنه يتكلم عن عالم آخر ، فقد كان مارآه مرتسماً أمام عينيه المحتقنتين المسمّرتين على الرعب . . استند برأسه على الحائط وهو يردد :

- لقد قتلوه . . الوحوش . . ياحيف ياحسين ، يازينة الرجال!!

حسين دوماني ، العامل الأنيس ، الطيب الصابر ، الذي تزوج منذ خمسة أشهر فقط ، حسين الصامت الخجول ، الذي يقدم مساعدته دون منّة أو كلل ، اختفت من سمائهم ضحكته الخافتة ، وأسئلته الدائمة عن معنى الكلمات الاقتصادية الصعبة ، ونظروا نحو كومته في الزاوية ، كانت مستطيلة سوداء كنعش حزن ودبّ في المهجع الرابع كله موجة من الجنون .

صرخ ميشيل سليم بأعلى صوته :

- كلاب . . لك كلا . .ب ، اقتلونا كلنا ، وحوش ، فاشيست .

وبكى فتى في السادسة عشرة من عمره ، انتزع من مدرسته رهينة عن أخيه الهارب ، وصار يضرب برأسه الجدار ويصيح :

- أريد أن أخرج . . لاأريد أن أموت .

وأمسكه المحامي سليمان بصعوبة .

- لن تموت . . ستخرج . . ولو . . صرت رجلاً ، شارباك قد نبتا . . مش عيب ؟

- لاأريد أن أموت . . لاأريد أن أموت!!

وأخذ الجميع يتكلمون معاً ويصرخون ، وبدأت أصوات من المهاجع الأخرى تهمس مستفسرة ، وانهار بعض المعتقلين مستندين على الحائط وهم يرتجفون ويراجعون ذاكرتهم .

وبدا أن النوبة التي أصابت المهاجع لن تنتهي ، لقد أفلت الحقد والخوف من عقالهما . . وأخذ كلٌ منهما يعبّر عن نفسه :

- لاأريد أن أموت . . لاأريد أن أموت .

- اقتلونا كلنا . . ياجبناء . . يافاشيست . . يافراعنة ، نحن نبصق عليكم .

ولكن ضجة مفاجئة وضعت حداً لذلك ، فقد اقتربت خطوات وسمع حوار :

- أنت كلب عكروت

- . . أنت ورؤساؤك الكلاب العكاريت

- يخرب بيتك . . خذ . . ستموت (وسمعت خبطة قوية)

- هديب . . هديب . . (1) ياجبل مايهزك ريح

- ليك الحيوان ليك

- أنت ورؤساؤك وحوش وحيوانات قذرة .

- خذ (خبطة أخرى) نعم ، قبّل هكذا الأرض . أرى الجبل وقع!!

- الجبل هنا في القلب لن تستطيع هزّه .

واقترب الصوتان وهما يتشاتمان ، وظهر عريف ضخم يعرفه كل من دخل غرفة التحقيق يسوق أمامه شيئاً ، ومد يده إلى زناره مخرجاً حزمة من المفاتيح الثقيلة ، وصرّ باب المهجع الرابع وفتح ، ودفع العريف الشيء إلى الأرض بجُمْع كفيه ، ثم أغلق الباب بسرعة وابتعد وهو يشتم ويزمجر .

- صار لي عشرون سنة بها الصنعة ولم أر خلالها حيواناً بهذا الشكل

ونسي معتقلو المهجع الرابع ماهم فيه ، ونظروا برعب ودهشة إلى (الشيء) الذي وقف أمامهم ينظر إليهم من خلال الأربطة والضمادات .

لقد كانت جثة حقيقية لمشوه من مشوهي الحرب .

---

(1) تعبير بدوي يقال للجمل الذي يتحمل كثيراً .

وأطلقت الجثة ضحكة طفلية مهموسة كأنها المناجاة وانداح صوت رفيع :
- مرحبا ياإخوان .

* * *

كان رجلاً رَبْعة ، ثيابه البلدية ، المؤلفة من سروال أسود وصديرية مقلّمة ، تنبىء عن جسم بالغ النحول ، أما وجهه فقد لُفّ بأربطة قذرة ملطخة بالدم تدور حول رأسه وتغطي أذنيه وخديه وبعضاً من فمه ، أما قدماه فقد كانتا متورمتين شديدتي الزرقة ، تنتهي أصابعهما بلطخ حمراء فلا يبدو من خلالها أي ظفر .

رمش بعينيه المتورمتين عدة مرات وكأنما أدهشه هذا السكون حواليه ، ثم ضحك بوجه الجميع وكرر بنفس الصوت الرفيع المهموس :

- مرحبا ياإخوان .
- مئة مرحبا .

وتغلبوا على دهشتهم وذعرهم وانطلقوا يسألونه :

- من أين حضرتك ؟
- هل هربت من المستشفى ؟
- لقد هرب قطعاً من غرفة التشريح ؟!
- ياإسم الله ، ولكن ماذا فعلوا بك حتى أصبحت هكذا ؟

وصرخ ميشيل :

- العمى . . اتركوه يتنفس ألا ترونه يجاهد كي يتكلم ؟

قال صاحب الصوت الرفيع وهو يقلص عضلات وجهه :

- أولاً اعصروا لي ليمونة حامضة أبلّ بها ريقي .

وجلس بصعوبة مسنداً رأسه إلى الحائط

:مافي وقت ياشباب . . الحيوان العريف الدرفيل تاه وماسمع الأمر مليح ، قالوا له خذه إلى السيلول ، حيث كنت منذ أسبوع فجاء بي إلى المهاجع ، وسيأتون بعد قليل ليأخذوني حتى لاتنفضح الطبخة . بالمية مية سيأتون!!

وصمت الجميع مأخوذين بينما تابع وهو يلهث :

- الحمد لله الذي شفتكم لأقول لكم القصة كلها ، فقد أموت وأروح هدراً ، ولاأريد أن أذهب هدراً ، كانوا سيخترعون قصة بائتة محمضة . . أما الآن فطويلة على رقابهم .

وانفجرت التساؤلات : - هل ذهبت إلى المكتب الخاص ؟

– من المؤكد أن الخطيب قد عذبه بنفسه
– لاتنسَ فضائل أبو أحمد الجحش .
– متى لقطوك ؟
– الاسم الكريم ؟
فرفع يديه ، وهو يتلمظ بطعم عصير الليمون :
– حلمكم . . حلمكم . . داعيك منصور ميداني ، صاحب فرن بحيّ الميدان ، أول كل شيء أنا لاأتعاطى كثيراً بالسياسة ، ولم أدخل بأحزاب ، ولكني أقرأ الجرائد ، وأعرف ماينفعنا وما يضرنا ، ووقعت الانتخابات ، انتخبت الناس الذين يعرفون أكثر من الجلوس على الكراسي ورفع الأصابع ، وكنت أجمع الصنعية كل يوم ونحكي على سياسات ها العالم ، ولم يحب ذلك بعض من ينتفون حواجبهم ، ويعيشون – حاشاكم – من عرق أقفيتهم ، فأطلقوا على فرني اسم الفرن الأحمر . .ونكاية بهم ملأت حيطان الفرن بصور الشيخ الأشمر . . تاج ميداننا وشيخ ثوارنا .
« وبلا طول سيرة . . انقلبت الدنيا ، وعبس وش الدهر ، وجاء إلى بلادنا من كنا البارحة نفدي أرواحنا تجاهه في معركة القنال فأتى اليوم يمص دمنا ويقتل شبابنا ويرمّل نساءنا . . العمى . . شوفي ياجماعة ؟ شوصار ؟ بلاد خربانة ، داشرة ، بلاد يهود ، لك شو مالكم شايفين خيرات بعمركم ؟ قال عديم ووقع بسلة تين وهات ياسلب . . وهات يانهيب بشرفي ياجماعة الخير رغيف الخبز الذي كان يدور في يدي كوجه القمر في الشروق ، صار يتفتت ويتمزق كغَزْل البنات ، طارت البركة ، كانت الغلّة – نحمد الباري – تطلق الضحكة عرض دراعين في وجه أم الولاد فصارت لاتكاد تكفي أجرة الصنعية!!! وصدق من قال : الحاكم الظالم يسلب الأرض خيرها والدنيا شمسها . . نعوذ بالله من الظلم والظالمين ياجماعة الخير .
« ويوم من ذات الأيام صرخت لأم الولاد وقلت لها : اسمعي ياخديجة الدنيا فيها هيك وهيك ، وهالحكام مومسميين بالرحمن ، نازلين بهاالبشر حبس وضرب وقتل ، ومن أيام جاءني واحد علق ، من جماعة آخر الليل ، وقال لي كنت بزمانك معلّق صور وتتحدى الناس ، وعندما رأي يدي تمتد إلى دف العجين ، قصرها وشمَّع الخيط ، ولذلك من يعرف ، والعلم عند علاَم الغيوب ، فقد أكون بكرة في بيت خالتي (١) فلا تخافي ، ولاتقصدي أحداً ،

(١) أي السجن

عندك هالخمسمئة ليرة في صندوق الجهاز ، في كم الصدرية المقصّبة اصرفي منها حتى يفتح الله ويفرجها عليَ وعلى البلاد كلها ، ، وإذا خلصت بيعي الراديو والخزانة والكنبيات ، ولايهمك شي ، وإذا احتجت أجّري الفرن ، الذي يأخذ يعطي ، لاتتذللي لأحد ، وقولي للولاد - أبوكم حبسوه الظلام ، لاتقولي لهم سافر أو غاب أو . . مثل عادة الأمّات . . قولي لهم حبسه الظلام وربهم على كره الظلم والظالمين!! »

وسقط لاهثاً مقطوع الأنفاس ، فشرب مصّة من كأس الليمون ، ونظر إلى العيون المحدّقة فيه بلهفة فعاودته ابتسامته وتابع :

« ظننت أن خديجة ستبكي ، ستقطع شعر رأسها ، ستولول ، ولكن النسوان أجناس ، بنت الأصل والعيلة مثل الذهب العتيق - داعيكم آخذ من بيت نجيب ، وبيت نجيب طول عمرهم ثورجية أولاد ثورجية ، منهم أبو خالد نجيب . الله يرحم ترابه الزكي ويعشب قبره الطاهر مات بالثورة - الحاصل . . خديجة - بلا مستحى كلكم إخواني - قامت وباست رأسي وقالت :

ولو يامنصور!! أنا تربايتك ، لقد عودتني دوماً على الطريق الدوغري ، احسُبْ دوماً أنك في البيت ، إن كان طريقك صحيح خليك عليه ، ولايهمك ، الله من فوق يحكم ويساعد بعدي اسمه ، اللي كاتبه بيصير :

« من عشرة أيام والدنيا حميانة عليكم كبطن الفرن ، والناس تقلب كفوفها متعجبة . لك ليش لقطوهم ؟ من كان بالمقاومة ؟ هم!! مين اللي كان بالصفوف الأولى وقت الحزّة واللزّة (١) هم!! مين اللي فضح الخونة والمتآمرين ؟ هم!! طيب ماعدا مما بدا ؟ الآن صاروا بوش ؟ الآن صاروا مالهم ولاد الوطن ولحم دراعه ونيرة سنانه ؟ شو هي الدنيا هيك بالبرابيك(٢) ؟

صدري كان ضيّق ، يدي ترتجف وأنا ألقم الفرن ، والزبونات حولي واجمون كأن عزرائيل فوق رؤوسهم ، وإذا بسيارة مثل الزلحفة . . طوط طاط طوط ببيب . . شوفي ؟ ووقفت السيارة على باب الفرن ، ونزل منها خمسة شباب وواحد شايب شيبة النحس ، لابسين كزالك (٣) سود الله يسوّد وجوههم ، فات الشايب وايده على جيبته ليفهم الناس أن معه فرد ،

---

(١) أي وقت الشدائد

(٢) أي الكذب

(٣) أي العوينات

ثم رفع رأسه ونظر إليَ نظرة غدرٍ ، فتعوذت بالله وقلت الله يتمم هااليوم على خير ، وبعد قليل قال : انت اسمك أبو سليمان الميداني ؟ فقلت له : نعم داعيك . . خير انشا الله ياأفندي ؟ قال امش ولا معنا!!
أنا اسمعت كلمة (ولا) عرفت أن الساعة دقت ، ولكني تجاهلت وقلت له لوين ؟ قال بعنفصة : مش شغلك!! قلت : كيف مش شغلي ؟ قال وهو يتلفت حواليه :
- نحنا من المكتب الخاص
قلت :
- أنا لاأعرف لامكتب خاص ولامكتب عام . . أنا لاأروح إلا بورقة جلب ومذكرة توقيف ومختار ، نحنا منعرف القانون ،
قال :
- نحنا القانون
قلت :
- شوعملنا ؟
أجاب :
- أنت قدام الناس من أربعة أيام الساعة تنين ونص بعد الظهر قلت انو الحالة زفت ، وهلأ مابدها المسألة شوشرة (١) وعياط . . بتروح معنا للتحقيق وترجع بعد عشر دقائق ، المسألة بسيطة!!
قلت : ربّك مابزحزحني من هون إلا محمّل على سحليّة (٢) الناس بتعرف أن الذي يروح لايعود .
فشفط شفطة من سيكارته . . شفطة حشاشين ثم انتتر نحوي وصاح . .
- ليك العرص ليك
وهنا ياجماعة الخير كان فيَ صواب وطار : بعمري كله لم يقل لي أحد كلمة نابية ، وماتعودت حطها واطية لأحد ، يجي هالعكروت السحنوك الذي لايسوى نكلة (٣) يسبني أمام أهل الحي ؟ نطيت متل البرق نحو دف التقريص (٤) ، فشلته وصفقته به على وجهه ، فصرخ وحاد عنه ، فأصابه في

---

(١) أي ضجة

(٢) أي نعش

(٣) عملة تساوي نصف قرش

(٤) التقريص هو تقسيم العجين إلى أرغفة

خاصرته فعوى متل الكوت (٥) المنكوت ، وفكّ الفرد ، ولكني صرت أرميه بكل مايقع تحت يدي ، وهجم جماعته نحوي فأمسكت بمحراك النار وكان أحمر كالجمر ، إذ كنت أحرك النار ساعة دخولهم ، ورفعته ووقفت وأنا أصرخ : لن أطلع إلا شقف . . قوّصوني .

عند ذلك حميت الجماجم وهجم الزبونات والصنعية عليهم وأمسكوا بهم ، وشقّوا لهم قمصانهم وكان الشايب يقول لجماعته : لاتقوصوا . . لاتقوصوا ، لأنه يعرف أين هو ، وقسماً بالله لو قوّص فإنه لن يطلع أحد منهم من الحارة على رجليه .

الحاصل . . ركضوا مهبّرين (١) مجعلكين نحو السيارة وهم يهددون الأرض والسماء بالحرق والقنابل والقطران ، فلما ابتعدوا طارت السكرة وجاءت الفكرة ، قلت للزبونات : ياجماعة انتو مادخلتو ولاخرجتو ، روحوا كل واحد على بيته قبل مايرجعوا وتكبر ، قالوا لي اهرب أنت ياأبو سليمان ، قلت فشروا مالي سارق أو ناهب أو مجرم والله لاأترك الفرن إلا على ظهري ، والتفتّ نحو العجان وقلت له : مرّ ياحسين على البيت وقول للعيلة أنهم أخذوني ، وانت ياسالم يالله انصرف عالبيت وانت كمان ياصالح .

وابتعدوا وهم يسبون هذه الأيام الذين لم يروا مثلها من زمان الأتراك ووقفت أنتظر في الفرن وحدي . . جئت بأدوات الشغل ووضعتها أمام يدي ، وقلت في نفسي : ياولد أولتا وآخرتا (٢) موته . . موت شريف ولاتموت جبان ذليل ، والله لاتسلم حالك ولو اجا السراج نفسه

« وصفنت بالبيت والأولاد ودمعت عيني ، ولكني تجلدت وقلت اللي خلقهم يدبرهم ، وشعلت سيكارة من ذنب السيكارة وأنا أنظر إلى رأس الحارة . . مابقي فيها ديّار ولا نافخ في نار فكأنها في رمضان بعد مدفع الإفطار .

ومن بعيد سمعت زمور الخطر . . زمور الموت . . زمور الرعب . . زمور شرطة السرّاج .

* * *

---

(٥) أي جرو الكلب .

(١) أي مجروحين

(٢) أولها وآخرها

«جاءت سيارتان من سيارات الشرطة البيك آب ونزلوا منها مثل النمل ، وهجموا على المحل كأنهم يحتلون تل أبيب ، صرت أقفز من مكان إلى مكان ، ضربتهم بكل مايقع تحت يدي وبعد أن استنفدت كل الأدوات التي جمعتها ، انحصرت حصرة أعمى بقرنة ، استفردوني ونزلوا فيّ ضرب ، صرت أصرخ : طيبة ياأبطال . . طيبة ياأسود . . روحوا على فلسطين وفرجونا شطارتكم ، سمعت صوت الرصاص برات الفرن لترويع الحي وسمعت صراخ الناس وراء البيوت والنوافذ ، صار الدم ينفر من وجهي ويصبغ ملابسي ، ولكني لم أحس داعيكم ضعيف الجسم ، ولكن أي قوّة هبطت عليّ ؟ وأخيراً استحكمني أحدهم وضربني ببوز الفرد هنا فوق الجبهة بقليل ، فسقطت على الأرض مثل شوال التبن ، وهات يادعس وهات يارفس ، . فصرت أعض الأقدام والسيقان حتى ذهبت كل قوتي وبردت جروحي وأرخيت يدي على جانب ، فدعس أحدهم ببسطاره على فمي - عرفته وإن كتب لنا الله العمر سألحقه إلى الواق واق - فكسر لي سنين وكاد يخنقني ، ثم حملوني نحو السيارة ، كنت بين الموت والحياة ألقيت نظرة وأنا محمول على الفرن الذي قضيت عمري فيه ،وأغمضت عيني لأتقي الدم وهو يدخل في وسطهما ، ولكني سمعت صوت خديجة ففتحتهما ، ورأيتها من بعيد هي وأختي وأبنائي الصغار ومعهم الصنعية وبعض الرجال ، كانت تحمل في حضنها كومة أحجار ، أخذت تصيح وتلطم وهي تراني كتلة دم ، قذفت عليهم الأحجار وسبتهم حتى انبحّت ، وجرحت أحد الشرطة في رأسه ، ولما هجموا عليها حمي لها بعض الحريم من البيوت المجاورة ، ودبت النخوة في الرجال فعربدوا ، وعند ذلك فركها الشرطة ومشوا ، كان رأسي يخضخض على سيارة البيك آب ، وآخر مارأته عيني وسمعته أذني كان شبح خديجة وصوتها وهي تركض خلفي وتشجعني وتسبّهم . . هاي هيّ خديجة ياجماعة . . أخت الرجال ، النسوان توفيقات وحظوظ . . الله يبارك في البطن اللي حملها .»

سُمعت في تلك اللحظة خطوات حرس سريعة ، وقرىء اسم من المهجع الأول ، ثم انطلقت صرخة متطاولة أليمة وخبطة صماء وسمع صوت باب يغلق بعنف ، وبعد لحظات ابتعدت الخطوات وساد الصمت . . فتابع منصور الميداني قصته .

* * *

«فتحت عيوني على أصوات وصرخات وولاويل وخبط وسباب . . العمى على هذا الرابوص ، ظنيت نفسي بمنام ، ولكن الأصوات زادت وعلت ، مديت ايدي لأفرك عيني فلم تتحرك حركت رأسي فطرق كناقوس الكنيسة! غشي علي كم دقيقة وبعدين صحيت ، عرفت وين حطني الجمّال ، لابد . . هذا هو المكتب الخاص المشهور ، ياحفيظ ياستار كلكم تعرفونه لاداعي لوصفه ، ماشفت متله إلا في مسلخ «باب مصلى» : ناس معلقين بالسقف من كراعيبهم وهات ياضرب وهات ياجلد ، مجانين وفلتانين . قسماً بالله شفت اللحم كان ينتثر مع الكرباج ، شقف لحم قد راس العصفور .

لما شفت هموم الناس هانت عليّ همومي!! شباب ، بلا صغرة ، مثل الفل ، معلمين ومثقفين وفانين عمرهم بين الكتب ، محامين ودكاترة وموظفين وعمال وطلاب أشراف أوادم ، عيون البلاد ونظرها ، وفلاحين هياكل متل سنديان القدمرس ، يكهربونهم ويلسعونهم بالنار . . أعوذ بالله ، أنا شفت هالشوفات وطار مني العقل ، شوفي ؟ شو صار بالدنيا ، شو عملو ؟ خربوا الدولة ؟ حملوا السلاح ؟ نسفوا السرايا ؟ حششوا ؟ لحقوا الولاد ؟

سمعتهم يريدون دمقراطية ، وداعيكم عامّي لايفهم هالكلمات الصعبة . فهمتها أخيراً ، بدهم برلمان ، بدهم قانون ، بدهم يكونوا بشر لاحيوانات ، بدهم يكونوا إخوان للمصريين لاعبيد ، يعني بالاختصار بدهم الخير للبلد وأهل البلد ، طيّب ليش جهنم فتحت فمها عليهم ؟ ركّعوهم على البحص ، صبوا عليهم مي متل البوظ في عز البرد ، نفخوهم بالمنفاخ ، أدخلوا لهم الخازوق ، تفو على هيك وحوش ، تفو على هيك زلم ، ولوه مافي ضمير ولاشرف! العمى . . ولكن فكركم تراجعوا ؟ كانوا صامدين ساكتين متل صخر اللجاة .

«صفنت ، ولك يابوسليمان من الله بتحب هاالجماعة ؟ لك والله قلبك دليلك ، هيك ناس كل الناس بتحبهم إلا المجرمين والأنذال وجماعة النهب والسلب وبناديق الأجانب ، دمعت عيوني شهد الله ، وحركت حالي من فوق البلاط البارد فما تحركت ، وقلت يابو سلمان طاب الموت ، أنت مالك أحسن من ها الشباب ، أنت على كل شبعت من عمرك ، والولاد مؤمّنين بإذن الله . وحق المنتقم الجبار لاأسكت على كلمة .»

«شافني واحد منهم وأنا أتحرك ، ركض يخبر الشلّة فجاءوا كفرقة عسكرية ، وشفت الشايب وهو يكشر عن أسنانه ، قرفص جنبي وقال : عملت رجّال بالفرن ياعرص ؟ هلأ ورجينا شطارتك . فلم أرد عليه . بصق في

وجهي فجنيت وفتحت فمي وركبت القرون على راس أجداد أجداده ، حتى أحفاد أحفاده ، فعلقوا الفلقة في رجلي ونزلوا ضرب ، غشي عليَ مرات ، وبعدين فاتوا بالغميق قالوا : سب فلان ، العن فليتان!! قلت لهم فشرتو ا ، طويلة عاسنانكم ، ليش سبهم ؟ شو عملوا ؟ إذا كان في ناس بينسبوا فهم أنتم!! عند ذلك ياجماعة أمسكوني ، واحد من ايد وواحد من ايد ، وقعدوا على صدري حتى انقطع نفسي ، ثم جاءوا بكماشة ونزلوا تقطيع وتقليع بأظافر رجلي . »

سكت منصور الميداني وتاهت نظراته ، وانطفأت من عينيه تلك الضحكة الطفلية العذبة ، وبدا كأنه يطرد من عينيه أشباحاً رهيبة ، وظل هكذا مدة دقائق والصمت حوله واد ضبابي له لون الرصاص ، وفجأة اتقدت عيناه من جديد بحقد هائل :

« أنا مابدي شي من الدنيا ، إذا عشت وانقلبت خيمة كراكوز هذه مابدي إلا أن أكون سجان هؤلاء المجرمين ، وقتها . . يالطيف على النجوم في عز الظهر .

بقي شي ماجربوه فيَ ؟ حرقوا خدودي بالسيكارات جعلوا رأسي مصفاية ، تختخوا عروقي بالكهرباء ، حتى مضى علي بعدها ثلاثة أيام مابعرف فيها ايدي من رجلي . أخذوني عالمستشفى ، قلهم الطبيب خذوه من وجهي ، لاأريد جثث أموات هون!! ربطوني بالخرق حتى لاتظهر الجروح ودهنوني بالدوا الأحمر ، ولحشوني (١) من خمسة أيام في السيلول ، لاسؤال ولا جواب حتى اليوم ، لقد جاءني واحد لوح وفوتني على جماعة الضباط .

نظر إلي ولد منهم أشقر طويل ناتف حواجبه مثل البنات ، وقال : شفت لك مجنون شو عملت بحالك ؟ ضحكت ، قلت له ياسيدي أنا اللي عملت هيك بحالي ولاّ أنتم اللي عملتوا فيَ هيك ؟ قال : الك نفس تجاوب ولك عكروت ؟ قلت له أنا شريف وطول عمري ماعكرتت على حدا .

تطلع إليَ واحد تاني مثل الدجاجة الطوزا (٢) وضحك باستهزاء وقال : ولك انت سياسي ؟ قلت له : أنا بعمري مادخلت بالأحزاب ولكن أعرف المنيح من العاطل .

فضحك ثالث مثل فرخ الجن وقال : يظهر انك سياسي فظيع! فمارأيك دام

---

(١) أي رموني

(٢) أي متكبر

فضلك بمشكلة برلين ؟ قلت له : برلين تبع الألمان ؟ وقال : هي بذاتها ، قلت له مابها ؟ قال مع مين الحق فيها مع الروس أو الأميركان ؟ قلت له بعمري ماسمعت بهالشغلة ، ليش مابتسألني عن بلادنا وشوبدنا ببلاد الناس ؟

وقفز ثلاثة منهم نحوي قائلين : شو رأيكم ياسيدي ؟ فأجبتهم وأنا أرد على سخريتهم بحدّة : حكم زفت ، بدنا ديمقراطية ، بدنا برلمان ، بدنا حرية ، بدنا أخوّة!!

وعند ذلك هجم الثلاثة محمري العيون ، وبغضب شديد نزلت عليّ الكرابيج لاأعرف من أين ، وشحطني العريف من أمامهم إلى هنا ورأينا وشكم بخير .

ياجماعة . . أنا ضميري مرتاح ، علمتوني هنا أشياء كثيرة ، صرت أعرف كم شغلة عن الدنيا وعن الناس ، ومعليش كلكم متل إخواني . . لاتزعلوا السجون للرجال .

أنا حاسس اني واضع رجلي اليمين بالدنيا والشمال بالقبر ، من يعرف ماسيفعلون بي ؟ ولكن بحق الصحبة والأخوة لاتنسوني إذا مت ، انتبهوا للمرا والولاد ساعدوهم ، طول عمركم كرام ولاد كرام .

لك شوبكم ساكتين كأنكم في جنازة ؟ لك اضحكوا ، كل عقدة ولها حلاّل ، لولا وجود زلزال تحت أرجلهم ماصنعوا كل هاالفظاعات هنا ، لك والله عم ترجف رجليهم قصب ، وبكره بتطلعوا وبتذكروا ها الأيام لأولادكم ، لك اضحكوا . . لاتفرحوهم وتشمتوهم بالزعل اللي ماله نهايه . ارفعوا رؤوسكم ، طول عمركم راسكم مرفوع . . ارفعوا ارفعوا ياإخوان » .

ثمة صرخات مبهمة في الطابق السفلي ، ومن خلال النوافذ الغربية تنطلق « جاهز » مبحوحة كنباح كلاب أنهكها العطش ، ولكن معتقلي المهجع الرابع لم يسمعوا شيئاً من ذالك ، كانوا ينظرون جميعاً مفتحي العيون في شيء من الدهشة والاعتزاز ، إلى هذا الإله الآدمي الملفوف بالأربطة ، المتوقدة عيناه توقُّد مصباح في ديجور ، الجذَل جذَلَ طفل في ملعب ، ووقف ميشيل سليم ثم اقترب منه وجثا أمامه لحظات ، وفجأة مد ذراعيه وقبّله بحرارة عدة قبلات ، على البقع الملطخة بالدم ، على الشفاه المتورمة المتمردة ، على الخدين الغائرين الناتئة عظامهما .

وبوغت منصور برهة ، وضحك بارتباك . . الضحكة الناعمة الفضية كأجراس عنزات جبليات .

وسمع وقع أقدام مسرعة ، فرفع منصور رأسه وتنهد ثم قال بأسى :

- شرَّفوا . .

ووقفت الأقدام عند الباب ، وصرَّ الباب ثم فتح وووقف الرقيب بيطار والعريف الضخم يحمل رشيشه ويتفحصان المعتقلين ثم قال الرقيب بصوت هادىء :

- منصور الميداني!!

-حاضر

- قوم خيَّ قوم . . غلط هالتيـ . .(واستدرك وهو ينظر إلى العريف الذي اضطرم غضباً) مكانك بالمستشفى ، قوم خيَّ قوم سنأخذك إلى المستشفى ونداويك!!

ووقف منصور بصعوبة ثم التفت نحو المعتقلين بعينيه ،ابتسم

- بخاطركم ياإخوان

واندفع الفتى ذو الأعوام الستة عشر وانطرح تحت رجلي العريف صائحاً :

- بعرضكم . . دخيلكم . . داخل على دين محمد . . طالعوني . . لاأريد أن أموت . . لاأريد أن أموت .

وركله العريف ركلة قذفته مترين ، وصرخ المهجع :

- تنكسر هالرجل

-ياوحش ، ياكلب تضرب طفلاً

-جبناء

-فاشيست

وذعر الرجلان وأخذتهما الدهشة ، وتذكر العريف أن بين يديه رشيشاً فهيأه وصوبه نحو المهجع :

- كل من يتحرك يموت

وأنَّ الفتى

- دخيلكم . . أريد أن أطلع . . لاأريد أن . .

وغرق في بكاء هستيري فاجع

وامتدت يد العريف الطليقة فنترت منصور الميداني ، وأغلق الباب في عجلة ، وصرت المفاتيح بالأقفال وسمع صوت العريف :

- ولك عكروت . . شو حكيت معهم ؟

- أولاً انت عكروت ، ثانياً حكيت لهم كل شيء .

- خذ ياابن ستين صرماية ، ستموت في السيلول كالكلب الفطيس (صوت خبطة)

- واحد متلك يموت كالكلب الفطيس!
وتدخل الرقيب فزجر الاثنين ، فهمهم العريف متوعداً :
- موتك على هالايدين .
- اللي أكبر منك ماخفنا منهم ، بقي علي سحنوك سلبود (١) مثلك!!
وغاب هذا الحوار عن الأسماع عندما انتهى الممر الطويل .
همد بكاء الفتى فأصبح زفرات مرتعشة ، وجلس الجميع يحدق بعضهم في بعض ، كان روح جديد ، ناعم وعذب ولكنه مليء بالقوة يسري في دمائهم . وقفز سليمان هائجاً يذرع المهجع ذهاباً وإياباً ويقول وكأنه اكتشف حقيقة كانت في ذهنه نظرية :
- هذا هو الشعب . . هذا هو وجه سورية الحقيقي .
وندَّ من أحد الأركان صوت بدى فريداً متردداً ثم أخذ يقوى ويشتد ، وانضم إليه صوت وصوتان ، ثم انطلق المهجع كله ، وتلته المهاجع المجاورة وارتج المعتقل بالأصوات الغاضبة :

اضرب ياجلاد
واقفل ياسجان
لن تقوى الأصفاد
أن تمحو الإيمان (٢)

وكان سدّ «جاهز» المحكم في الخارج يتشقق ويتطاير والأصداء الفتية المنبعثة من أعماق المهاجع تلاحق أشلاءه عبر الظلام .
وسمعت أصداء ضحكة مخنوقة من الطابق السفلي .

١٩٦٠

---

(١) أي ضنيل حقير

(٢) نشيد المعتقلين في سجن المزة



الجنّازتان

غداً وغداً وغداً وكل غد يزحف بـهذه الخطى الحقيرة
يوماً بعد يوم الا انـطفئي أيتـهـا الشمـعـة الضئـيلة
فما الحياة إلا ظل يمشي
(شكسبير) «مكبث»

رفع الطبـيـب رأسه فجأة ثـم نظر إلينا واحداً واحـداً بشكل استـعـراضي ، فأدرت عيني إلى أبي وإخوتي . كان الرعب متجسداً في عيونهم ، أما أمي فقد كانت مسجّاة هناك ، على السرير النحاسي الأصفر ، تتصعد أنفاسها ببطء ومشقة ، وهي تحاول السعال ، فلا يخرج من فيها سوى أنين خافت . وتعلقت عيناي بوجه الطبيب المتجعد كقطعة خيش . وخيل إلي أنه يتـهـمنا واحداً واحداً وغمغم :

– لاأفـهـم . . كـيـف تـركـتـموها حتى الآن . . كـان يجب التـصـوير منذ سنوات

وتهادى بطيئاً غاضباً نحو الباب :

– عليَّ بالمطهّر

وقفز أربعة منا لتلبية النداء ، وراحت يداي تبحثان في الدرج في ارتباك مجنون حتى وجدته ، فقدمته إلى الطبيب وقد أحسست بشيء من الزهو .

ووجد أبي أخيراً الكلام :

– طمني ياد كتور

---

(١) فازت هذه القصة بالجائزة الأولى في مسابقة القصة لجمعية محبي الفنون الجميلة بدمشق بالاشتراك مع مجلة عصا الجنة سنة ١٩٥١ .

فأجاب بإيجاز وهو يهز رأسه :
- إنها في خطر!!
وسعل . . بينما نظر بعضنا إلى بعض في حيرة
- إنه السل الرئوي . . وهذه هي آخر حالاته .
وغضب من جديد
- لاأفهم . . لاأفهم حقاً كيف يموت إنسان من هذا المرض في هذا العصر . فقد كان يجب أن تبدأوا من زمن طويل . .
وصفَر في حقد :
- ولاأظن أن المال كان ينقصكم .
وشعرت برعشة تهزني ، وخيل إلي أن رأسي أكبر من الغرفة وأسرعت بالخروج لأخفي دمعة باكية ، ووجدت أخواتي واقفات مترقبات فبادرنني بأسئلة عدة : مالك مكفهر الوجه ؟ ماذا قال الطبيب ؟ وهزتني أختي الكبرى النمشاء : قل . . انطق
فقلت بصوت أردته أن يشبه صوت الطبيب :
- هي مريضة بالسل الرئوي .
ونظرت إليّ أختي الكبرى وقد تقلص وجهها فبدا كجلد الفيل ، وقلت مندفعاً في حمق :
- ألم أقل لكم منذ زمن طويل ؟ . . أنتم . . أقصد نحن قتلناها .
ويظهر أن دموعي التي رافقت كلامي هي التي شفعت لي ، فقد نظرت إلى أختي في وحشية وبرقت عيناها الباردتان ،وتخيلت كلمتها الخالدة :
- اذهب ياكلب .
وأسرعت بالدخول لأجد الطبيب يلملم أدواته بهدوء طقسي وبصوت قدري حاول أن يُلبِسه مسحة من التأثر همس :
- إذا استطاعت أن تقاوم فستعيش إلى المساء
ونظرتُ إلى المنبه . . الساعة الآن العاشرة . . ثماني ساعات فقط وتكون أمي العزيزة قد غادرت هذا العالم إلى عالم مجهول مظلم لانعلم عنه شيئاً!!

* * *

فائز!!
- نعم بابا

- انقل الكراسي من القاعة إلى أرض الدار . هناك كرسيان في غرفة أخيك لاتنسهما .
- فائز!!
- نعم بابا
- لماذا ضربتَ أختك . . يجب على الإنسان أن يملك رشده عند الشدائد . لقد أصبحتَ رجلاً
ورفعت رأسي إليه بعنف . . كنت أريد أن أصيح . . ياقاتل ، ياقتلة . لقد تكاتفتم جميعاً وقتلتم أمي!! ولكن وجه أبي كان حزيناً جداً . . حزيناً بشكل يفتت القلب ، فسكتُّ ، ولكنني كنت أبكي .
- اذهب ياولدي وخذ الباص واسرع إلى بيت جدتك واعلن خالتك النبأ .
ذهبت إلى غرفتي متثاقلاً ، ومررت بيدي على وجهي فوجدت ذقني نامية . . لابأس سأرتاح من الحلاقة اسبوعاً طويلاً ، وشعرت بارتياح خجول عندما تذكرت كذلك أن عندي بذلة سوداء وربطة عنق سوداء يجب أن ألبسهما ، ولبست البذلة وعقدت الربطة وأنا أنظر في المرآة إلى شعري المهمل ، ووجدت يدي ترتفع لتشوشه أكثر ، ثم انسللت من الباب الخلفي لأخبر خالتي .
وركبت السيارة وأنا أتساءل : مامعنى أن أمي قد ماتت ؟
ياله من سؤال سخيف يطرحه فتى على نفسه . . وشعرت بتفاهة معلوماتي . . وأحسست بالناس حولي غريبين عني نظرت إلى وجوههم الجامدة بغيظ ، وتمنيت لو يعرفوا جميعاً أن أمي تموت لأحظى بشيء من المهابة . . ووخزني قلبي . . . يالي من حقير! وهززت كتفي : وبعد ، ألست من طينة أولئك الذين أهملوا أمي وتركوها تموت حتى لايدفعوا أجرة الطبيب ؟
وارتفع صوت بكاء مزعج لطفل صغير ، فأخذت أمه تهدهده وتعلّله الأماني وصراخه يزداد حدة ، بينما قال أحد طلاب التجهيز وهو يخفي وجهه :
- عطيه بزه!!
فضحك بعض الناس وعبس آخرون ، واندفع أمامي شخصان في مناقشة حامية عن أسعار القمح وضرورة وجود مؤسسة الميرة وكان أحدهما يصيح باهتياج :
- العمى . . بلعونا . . سرقونا . . بلاد القمح واهراءات روما أصبح الزيوان فيها بسعر الذهب .

وسمعت صوتاً ورائي لشاب مراهق ينتهد ويمصمص بشفتيه وهو يطري جسم تحية كاريوكا ، ، بينما صم آذاننا بوق سيارة قد أفلت في باب الجابية فنزل صاحب السيارة يحاول أن يصلحه وهو يبصق ويسفح اللعنات .

وقفز إلى ذهني خاطر : كم أتمنى أن يفقد هؤلاء الناس جميعاً أمهاتهم في هذا اليوم ليشعروا بعمق مصيبتي ، وابتسمت في سخرية ، المهم أن أمي قد ماتت . . أو ستموت بعد ساعات ، وتصورت يدي تدق الباب وخالتي تفتحه ، ثم تشهق حينما ترى وجهي الكامد وأنفي اللامع من الدموع ، وأقول بصوت أحاول أن أجعله خطيراً :

- إن أمي قد ماتت

وتصورت وجهها المليء ، وقد اتسعت حدقتاه وغشّاه الدمع وصوت لطماتها وعويلها ، والكلمات التي ستولول بها . . إن مهمتي لاتخلو من الإثارة الحقّة .

ستقودني خالتي من يدي بسرعة لأطلعها على التفاصيل ، وستسألني أن أخفض الصوت حتى لاأزعج جدتي المقعدة التي هي على شفا الموت . وشعرت بغصّة من الغضب : هذه العجوز الدردبيس ، كم شاهدت في حياتهامن مآس ونكبات ، أنجبت ثلاثة عشر ولداً مات أكثرهم في المهد ، وعاش لها خمسة أولاد مات أحدهم وهو في الثلاثين من عمره بالسل الرئوي ، ومات جدي بلدغة ثعبان ، وحفيدها تحت أنقاض سيارة تدهورت في وادي خالد . . كل هذا وهي لمّا تزل قوية مكينة قد جاوزت الثمانين ، واحتفظت بكامل قواها العقلية ، تدفن أبناءها بيدها مودعة إياهم بدمعتين وولولتين ، ثم تعود إلى جلستها فوق كرسيها العتيق الصدىء .

ووجدتني أصرخ من أعماقي . . أما كان من الممكن أن تموت جدتي مثلاً عوضاً عن أمي ؟ إذن لآمنت بأن هناك عدلاً في الحياة ، وان عيناً بصيرة . حقاً ، كريمة حقاً ، ترمق هذه الدنيا وتسيرها . لقد شبعت جدتي من الحياة ، وشبعت من رؤية الأحبة يموتون في عزّ شبابهم . . هذه العجوز كم أتمنى أن أخنقها ، ماذا رأت أمي من الحياة بعد ؟ وتصورتها صحيحة معافاة تملأ البيت مرحاً وغناء . وأحسست أصابعها تغرق في شعري وتهيب بي :

- هيا يافائز . انجح السنة وسأكف عن مصادرة علب الدخان من جيوبك .

فأضحك من أعماقي وأضمها بعنف :

- سأنجح ياأمي . أريحي فكرك أنا ذكيٌّ ابن ذكيّة . . يومان أدرس فيهما ويكفي!!

وترتسم على وجهها ظلال من الشك :
- هل ستنجح حقاً ؟
وساءلت نفسي مرة أخرى . . كيف ماتت ؟ وهل الموت بهذه السهولة ؟ ياليتني أستطيع أن أموت عوضاً عنها . وخز آخر في قلبي ، والعرق يبلل جبيني ، وخجل يكاد يخنقني . هل أنا صادق ؟ هل أتمنى حقاً أن أموت لتعيش أمي ؟ والشعر ، والقصص والشهرة ، والرسالة التي أعتقد أنه يجب أن أؤديها ، ومباهج الحياة ؟ يالي من جبان ، لو كنت مكانها لما ترددَتْ لحظة واحدة في فدائي بعينيها .
وشعرت بلساني يجف ، وأخذت أتشاغل بالنظر ، ثمة بائع عرقوس يضرب بطاسته الهادرة ، وتلك امرأة تبدو غير محترمة ، وتلك سيارة بويك طراز الواحد والخمسين تدور حولها . عبثاً أحاول أن أبتعد عن نفسي . . وخزة ثالثة في القلب . . يالي من حقير . . حقير لدرجة مُغْثِيَة .

* * *

أمسكتني خالتي من يدي في ذعر ، وآلم ذراعي ضغط عصبي قاسٍ ثم قادتني إلى الصالون وفاجأتني بقولها :
- لاتقل شيئاً ،إني أعرف أن أمك في خطر!!
واعترتني دهشة فيها بعض خيبة الأمل ، فقلت لها بصوت خافت عدائي :
- ومن أخبرك ياخالتي ؟
- إن شيئاً منذ الصباح يقبض على نفسي ، إني أعرف أعراض المرض (وشهقت بالدمع) ألم يمُت المرحوم خالك فيه ؟ ولكن أنت لاتذكر . . واولداه . . واولداه . .
وغابت قليلاً في ذكرياتها ثم قالت مندفعة :
- لو اعتنيتم بها قليلاً لتداركتم المرض من أوله
فقلت بصوت هادر :
- إنهم مشغولون ياخالتي بعرس أختي ، لقد أعمتهم الفرحة فلم يلاحظوا أمي وهي تذبُل .
- وأولداه واولداه على شبابك ياطربون الحبق .
- إنهم قتلة . . كلهم . . قتلة . . قتلة . .

وخيل إليَ أن نظرات خالتي تخترق صدري . . نعم نعم ياخالتي ان لي جزءاً من المسؤولة . وأخذت أبكي ، فضمتني خالتي إلى صدرها وأحسست بدفء الصدر اللذيذ وباضطراب غامض وأحببت رائحة ثيابها ولكني تخلصت بسرعة فقالت لي بعجلة :

– احذر ياعين خالتك أن تسمع جدتك ، لقد قال الطبيب أن أقل صدمة ستقتلها (وأخذت تبكي بحرقة) لاأريد أن أفقدها أيضاً وصمتت قليلاً وقالت :

– سألبس ثيابي ، انتظرني ولن أطيل عليك .

وتوارت وهي تضرب كفاً بكف ، وخرجتُ إلى غرفة جدتي ، ووقفت متهيباً الدخول ، ولكن صوتها دعاني في خفوت أن أدخل . إذن فقد شعرت بي . وبدا وجهها نحيلاً جداً كأنه وجهُ لعبة طفل ، وخيل الي أنها تهللت لرؤيتي ، فقد كانت تحب أمي وأولادها حب عبادة ، فوقفت أمامها قليلاً دون أن أتكلم .

ومدّت إليَ يدها فأخذتها باشمئزاز لأقبلها فقالت في هدوء :

– كيف حال أمك ؟ لم نرها منذ مدة . لقد أخبرتني خالتك أنها متوعكة .

فأخذت أغالب دموعي ، ثم انفجرت بالبكاء وقلت لها بغيظ وحقد :

– إنها ماتت ياجدتي

فرمشت عيناها وحدقت فيَ برعب لايوصف ثم قالت بصوت متحشرج :

–ماذا . . هل قلت . . هل . . يافائز . . ؟

– ألا تسمعين ؟ (وأخذت أهزها) ماتت . . ماتت . . أنتِ العجوز الفانية تعيشين ، وهي الصبية الفاتنة تموت!!

ثم علا صوتي راعداً وأنا أضغط على يدها بدون وعي :

– لن تموتي حتى تدفنينا كلنا!!

واهتزت يدها في يدي هزة عنيفة .

* * *

في اليوم التالي سرت مع الموكب الحزين وهو يتجه صوب المقبرة كنت أغص بالدمع كلما لاح لي النعشان الخشبيان المتعانقان ، واندفعت أمام عيني صورة جدتي جاحظة العينين مائلة العنق ، ووجه خالتي وقد امتلأ بالتأنيب وصورتي وأنا أركض وأركض كأنما تطاردني الأشباح ، لأختفي في الدرب المتعرج الطويل!!

ثلج هذا العَالم

إنني وحيد ، ولكني أسير كفرقة تهبط نحو مدينة!!
(سارتر) «الغثيان»

الثلج ينهمر وينهمر عبر مربعات النافذة الحديدية حتى لقد آلمه اللون الأبيض ، ومسح بيده على شعره . . العالم مختلط مشوش . . . وبرزت في وجهه أسنان تحمل سكاكين ، وأذرع عارية تلمع عضلاتها تحت وهج الشمس وهي تضرب وتضرب في حقد ، وينفجر الدم حاراً قاتماً بعض الشيء كنبيذ معتق . واستطال جسده عملاقاً رهيباً ، وخيل إليه أن أصابعه امتدت وامتدت حتى استطاعت أن تمسك بخمسين عنقاً دفعة واحدة وأن تضغط عليها ، والأذرع العارية ذات العضلات ، ترتخي شيئاً فشيئاً كذنب حية سحق منها الرأس . والعيون المحكلة الهمجية ، تبرز من محاجرها في ذعر لايوصف .

ويستريح ، وينكمش ، وينظر إلى جسده الضعيف البارز العروق ، ويدور رأسه ف صنوج تنقع فجأة .

وحدق في الطلاب ساهم الوجه .

خيل إليه أنهم فقدوا هوياتهم في نظره . . مجموعة من العيون المتطلعة في حماسة تشرب كلماته ووجهه وحركاته وتعابيره . هل يقول لهم كل شيء في بساطة ؟ ألا يكون الخبر بالنسبة لهم هو استجلاب جو بطولي اسطوري له ، كنهاية ملحميّة لكل أحاديثه معهم ؟

ولكن الصمت . . الصمت الوقور هو الذي يشعره بجوهر المأساة الحق . رغم أن هذه المأساة تبدو له سطحية ضعيفة هيولية لها استطالات متعددة كرأس موجة متكسرة . . مائعة مجوّفة كقربة ليست منفوخة جيداً .

والتقت عيناه بعيني أحمد عاطف في قرنة الصف . . وداعاً ياأحمد عاطف . . وداعاً ياصاحب الوجه الأنيس . . أقول لك الحق ؟! لقد كنت طالباً مبرزاً وفوق ذلك ، كنت تقبل على الحياة عفوياً كقفزة غزال مذعور .

وكانت عينا أحمد عاطف قلقتين . . ستنقطع الدروس الخاصة ياأحمد!! أتقلق من دفع الحساب ؟ لن آخذ شيئاً بالطبع منذ قررت أن أساعدك . . يكفي أنك أتحت لي التعرف على إنسان طيب .

ومن على المنبر الذي لايبرز منه إلا رأسه وجزءٌ من صدره ، كان يتكلم بصوت متقطع . ولم يألف الطلاب من مدرسهم محمود الادلبي هذا المنهج في الحديث . . فوضع يديه أمامه على المنبر ، وشعر أنهما ترتجفان ، ثم أدخل يده اليمنى إلى جيبه فاصطدم بها ، وانقطع عن الكلام . . كانت بين أصابعه كحقيقة قاسية مخرّشة . . وفركها طويلاً وسمع خشيشها المكتوم .

العيون تتطلع إلى الشيء الجديد في الأستاذ الذي أحبوه . . أتعرف ياأستاذ محمود . . أنت أستاذ . . لاندري ماذا نقول ، أستاذ لذيذ!! .

في الصباح قال له ياسر أبو السباع : النبيتات وصلوا أستاذ . تنكة من أجوذ كروم الكَفر . . لايوجد مثلها في الشام . . دمعة رايقة . ستشربها نخبي ياياسر ، ستشربها مع أختك الجميلة وأمك العجوز ، وستنهل حتى يعرف خداك الهزيلان الشاحبان الاحمرار .

في البيت . . بعيداً في الشام ، سيقول أبوه أشياء كثيرة ، وشارباه الشائبان يرتجفان ، وفي عينيه نظرة غاضبة مبهمة . .

وتذكر قوله :

– قلت لك يامحمود . نحن ننتظرك فاشعر بمسؤوليتك . . ابعد عن الشر وغن له . . لانريد وجع رأس . . لقد انتظرنا الحصرم طويلاً فلا تسحق العنب . جاء دورك ، في رقبتك خمس أنفس تنتظر المعاش ، بدون حماسة زيادة عن اللزوم الله يرضى عليك . . تذكر أبويك العجوزين وأختك المريضة وأخاك الذي يهلك في سبيل تسعين ليرة .

ومسح محمود على عينيه ، اليد المرتجفة لاتزال تفضحه ، والعيون الكثيرة فيها دهشة وحيرة . وفكر : يجب أن أتوقع كل شيء ، كل كلام له جواب وثمن ، وإلا فكيف تكون الحياة ؟ ولكن هكذا . . وبشكل سريع ومفاجيء . . والحقيقة القاسية تخشخش بين أصابه يده اليمنى ؟! لقد كان يشعر حقاً بالضياع .

إلى أين وصلنا بالقراءة ياالخوان ؟

وفاجأه صوت فيه دهشة :
- أية قراءة ياأستاذ ؟
- قراءة الشعر .
- ولكنك قلت لنا البارحة إن الدرس إنشاء .
- آه .

وأدركه ارتباك يسير ، وقفزت إلى ذهنه طرقات لانهاية لها مغطاة بالثلوج ، والبرد يكاد يقصُّ الرُّكب ، والسيارة تمشي وتمشي ، ضمن الوحل والمطر والثلج ، وهو يهوّم ويصطدم رأسه بحاجز المقعد أمامه ، ومدينة غائمة نائمة ، وفندق صاحبه سكران ، ووجوه جديدة ، وعيون جديدة ، ووجه يبتسم في وجهه ابتسامة كالسيف .

- درس إنشاء آ ؟ من يريد أن يقرأ موضوعه ؟

وارتفعت الأيدي . . غابة من الأصابع ترقص في وجهه ، ونظر من النافذة التي تواجهه . . أي طقس فظيع هذا ؟ .

- الدنيا برد جداً . . المدفأة انطفأت مرة ثانية . . إرمِ فيها حطبتين ياسلمان .

ماأحوجه الآن إلى أن يرجع للبيت ، وأن يشعل المدفأة ويستلقي على سرير يلتهم الدفء ، ويحلم بعالم جميل ليس فيه ابتسامة تلمع كالسيف ، الناس جميعهم فيه يضحكون بسعادة . . وصاحبة البيت في القرية تضحك في سعادة ، وأبوه نفسه يضحك في سعادة . . عالم كله حدائق وعشاق وأطفال ، وثلج غير بارد ، ودفء فناجين الشاي وبخارها يتعالى مع دخان السكاير ، وتماثيل من البرونز والحجر تبرز لك من بين الشجر كالسحر ، وألحان أكورديون بعيد ، وشاعر أعمى يغني بصوت رخيم في الطريق يقوده طفل ضاوي الجسد ذو جدائل ذهبية ، وأخوه ينعم بامرأة جميلة تتحمل ذرات الحديد التي تتراكم على ثيابه في المعمل . . وقطار سريع يطل على حقول من القمح والبرسيم والزهور البرية المتألقة ، حقول خضراء خضراء لاتنتهي . . وملامح غريبة وثياب عجيبة ولغات عديدة يفهمها كلها وركضُ جنوني ومرح حتى تنطفىء الحياة .

والعيون تحدّق فيه ثابتة ثبات نظرة القلق والدهشة فيها . . ياإلهي لماذا تقلق العيون ؟ لماذا تمحى الطفولة السعيدة منها ؟ ؟ . . عالم طفلي!! وأعجبه التعبير . . كل فرد فيه يتصرف وكأن كل حركة يأتي بها فجائية نابعة من عفوية انبجاسة قطرة من صخرة .

وخشخشت الحقيقة السوداء بين أصابعه ، وساد غموض وتشوش ، وبرزت الابتسامة التي تلمع كالسيف .

– ماهو الموضوع ياشباب ؟

– الحرية أستاذ .

وأضاءت وجهه ابتسامة ، فانزاح القلق عن العيون وابتسم أحمد عاطف وتنهد بارتياح .

– الحرية ؟ اقرأ لنرى . . أنت . . عفواً فهد نصر . . طيب طيب اقرأ يافهد موضوعك .

« الحرية شمس ساطعة تنير الأكوان ، والحرية شجرة تفرش ظلها على الكائنات وهذه الشجرة إذا لم نسقها بدمائنا تموت ، ورحم الله شوقي حين يقول :

وللحرية الحمراء باب   بكل يد مضرجة يدقّ

أجل يجب أن نضحي بأنفسنا قرباناً على مذبح الحرية . . »

الثلج لايزال ينهمر . . ورأس كبير أسود بعين واحدة ، يتقدم ويتقدم ، . . حتى يكاد يلاصقه ويقبض على عنقه ، وطقطقة المدفأة ورائحة الخشب المحترق بعيدة . . بعيدة . . ذات صوت مكتوم أصم كضربات سوط منقوع بالخل .

الجلادون يعصبون عيوني بأصابع قاسية . .
إنني أعشق الشمس . . أعشق الزهر . . أعشق امرأتي .
ولكنني هنا في زنزانة مظلمة . .
لم يبق لي لذة في الحياة .
سوى خيط من الضوء الحار يلتوي على وجهي .
ويذهب نحو غيري بسرعة .
ويخونني كعاهرة حقيقية .

المقصلة تقطع الرؤوس وتقطع وتقطع . . والرؤوس تتقدم باعتزاز وإيمان نحو الشفرة اللامعة . . وجيد أسود وعينان حمراوان معذبتان ملطختان بالدم والدموع . . وزنزانة ضيقة وأنين قيود :

نحن هنا في الزنزانات .
اسمعوا صرخات قيودنا
إنها تهزأ بالسجانين .

وأفلتت أصابعه في جيبه الحقيقةَ السوداء ، وانقلبت قسوتها لينة مانعة

سخيفة لالون لها . . وعصرها طويلاً . . يالها من شيء هشّ . . نزهة يائسة لامعنى لها ، وضحك من تفاهة مأساته وشعر بارتياح ونقر على المنبر :

فهد نصر : تذكره الآن جيداً . إنه صامت دوماً كأبي الهول ، تذكر وجهه النحيف حينما تقدم إليه أول السنة قائلاً :

- أستاذ محمود .

-نعم .

وتلعثم فهد وأطرق قائلا :

- عفواً أستاذ . . هناك حديث خاص أريد أن أحدثك به . .

- تفضل . . تعال نتمشى خارجاً في الحديقة .

وبدت في عينيه سعادة لاحدود لها . . وأخذ يدخل يده في جيبه ويخرجها في ارتباك :

- أنا من قرية عرمان أستاذ .

- بالمقرن الجنوبي ؟

- نعم

- خير .

- أنا فقير جداً ياأستاذ . . أخي خالد يبعث لي بالشهر عشرين ليرة أعيش فيها هنا بالسويداء . . أختاي في المدرسة الابتدائية وأبي ميت وأما ماما فهي عجوز مقعدة .

وسكت قليلاً وزاد ارتباكه وتلعثمه فقلت مشجعاً :

- تكلم يافهد ، إذا كنت تحتاج إلى شيء من المال . .

- أعوذ باله . .

ونظر في عينيّ مستطلعاًثم قال :

- لقد قبضوا البارحة على خالد ، ضربوه في وسط القرية أمام النساء والشيوخ ، ثم أخذوه إلى الشام .

وتصور الأستاذ محمود أباه فجأة . . كان ثورياً عتيقاً حارب الفرنسيين وهو الآن يحتقر كل شيء :

- أنذال يابني ، قال حاربوا الفرنسيين قال . . أنا أعرف تماماً أن نصف الذين يحكموننا كانوا مع الفرنسيين .

ولمس الأستاذ وجهه ، وخيل إليه أنه دام بالكلمات ، وعينا أبيه تفضحانه بهدوء فيه اعتزاز : افعل أيّ شيء ولكن لاتحنِ رأسك لمخلوق . الكرامة كل شيء يابني . . عندما كنت في عصابة الغوطة . . .

– وماذا أستطيع أن أفعل من أجلك ياسيد فهد . . قلت إنك لاتحتاج إلى المال ، فمن أين تأكل ؟ . .

وأبعد فهد قدمه عن ضفدعة تنط بين الحشائش :

– لقد دبرت نفسي ، أنا أنتظر فرصة الظهر ، وعند انصرافنا في المساء . . أنتظر السيارات الآتية ، فأساعد الركاب في حمل متاعهم . . أنا أجني مايكفيني .

– عظيم يافهد . . يوفقك الله .

– ولكن قل ياأستاذ هل أخي على حق ؟ لقد تحدث بأشياء فظيعة عن الحكومة في المجالس وبين الفلاحين .

وتذكر أنه حدثه طويلاً ، ولن ينسى أبداً نظرة الاعتزاز والكرامة والفرحة التي زرعها في عينيه .

– شكراً ياأستاذ أنا مرتاح جداً .

« أجل . . ورحم الله من قال : إذا لم أحترق أنا وتحترق أنت فمن أين يخرج النور ؟ »

موضوعك جيد ياسيد فهد . . أكثرت قليلاً من الجمل المقتبسة ، تحدثوا ببساطة . . في كم من المواضيع وردت هذه الجمل عن الحرية ؟ كثيراً أليس كذلك ؟ إنها تفقد بعد ذلك مدلولها وتأثيرها . . تحدثوا من قلوبكم ، عن أثر الحرية في وطنكم ، في بيتكم ، في حقولكم ، في أنفسكم . لاتخجل يافهد نصر فموضوعك حسن السبك يدل على قراءة وثقافة . . ولكن هذه ملاحظات عابرة لابد منها ، موضوعك يستحق علامة مرتفعة . . من يريد أن يقرأ ؟

وقل عدد الأصابع واختار الأستاذ واحداً .

– تفضل ياسيد علي الشوفي .

«الحرية . . ياله من اسم عظيم جليل الشأن في حياة الأفراد والمجتمعات وإذا تفحصنا التاريخ ، نجد دوماً أن بعض الناس من الصفوة والأغنياء والأجراء للأجنبي ، يكبتون حرية المجموع ، ويسمى هذا بالحكم الديكتاتوري!! .

فلنقل جميعاً لتسقط الديكتاتورية بأنواعها وخاصة العسكرية . . »

وتوفزت أصابع الأستاذ على المنبر وبدأ كمن فوجىء فقال مقاطعاً :

– تمهل قليلاً . . هل أنت ذاكر بعد هذا أسماء خاصة . . أسماء حكومية ؟

فقال الطالب باستهانة وحماسة :

- طبعاً أستاذ ، أنا واضع النقاط على الحروف ، وأذكر كل شيء عن وضعنا ووطننا . .

-لماذا ؟ .

وتطلعت العيون إلى الأستاذ في ثبات ، وأحس بها تتفحصه كأنها تنظر إليه لأول مرة .

- أنت علمتنا ذلك ياأستاذ!! . ألم تذكر كل شيء في دروسك ؟

- أنا ؟ . .

وابتسم واسترخت أصابعه على المنبر .

الثلج ينهمر ، والحقيقة السوداء المخشخشة في جيبه لينة سخيفة تافهة ، والعيون المحدّقة فيه طيّبة ، رجوليّة وأنيسة تتوقّد كنجمة الصبح ، سيرى غير هذه العيون ، وسيسمع غير هذه اللهجة . . لقد تعود عليها وسيعتاد تلك ، وستقول اللهجة الجديدة .

- أنت علّمتنا ياأستاذ . . ألم تذكر كلَّ شيء في دروسك ؟

الوجوه تتقدم . . والسواعد المفتولة ترتفع في الهواء ملوثة بالغبار والعرق ، والعلَمَ متمزق ولكنه مرفوع بعزم ، ويدوّي الرصاص ، ولكن السواعد المفتولة تتقدم . . ووجه يشبه وجهه ولكنه يختلف عنه بأنه عملاق الجسم مفتول الساعدين متهدل القميص غليظ الشفتين جهوري الصوت ، يندفع وعروق ساعده نابضة ناتئة يرتجف عليها الشعر المشقرّ من الشمس المحرقة ، وأصابعه قابضة على شيء ثقيل ثقيل لايقدر على حمله خمسة رجال وهو يلوّح به كقضيب من القنّب . والغضب يتشظّى من كل حركة من حركاته . . يندفع إلى الأمام دائماً ، يهز الجدران ، ويدفع الدبابات ويلوي الحديد . وتتكاثر الوجوه . . وتتكاثر الوجوه . . وتتكاثر متشابهة حتى لايرى إلا هذا الوجه الأليف ، ولايسمع إلا هذا الصوت القوي . . والرصاص يغلي حوله ومن خلاله وبين أعضائه ولكنه لايصيبه ، والطرق تتشابك وتبرز منها السواعد والأعلام الممزقة حتى تسد الأفق والطريق والأرض كلها . . وتقلص كفاه ، وأحس بأن شخصاً بغيضاً ككتلة من شحم يرتجف ويذوب حتى يتلاشى كورقة جريدة محترقة سرعان ماتتطاير مع الريح .

وتشابهت الوجوه المحدقة فيه ، وعريت السواعد ، وخيل إليه أن نظرة حاقدة على كل شيء ترتسم في العيون . . لقد أفسد جمالها ، هذه البحيرات العميقة العذراء . . عكّر ماءها الجلادون السود ، ولكنه يؤمن بها ، يثق بأنها ستصفو عن ماء ولافي صفاء قلب طفل . .

- طيّب ياسيد علي . . أكمل موضوعك قل ماتريد!!
وأدخل يده إلى جيبه وأخذ يعرك الورقة اللينة بين أصابعه . . .الانسان واحد . . جميل . . بهي ، رائع . . مدهش . . إله!! في كل مكان وتحت كل شمس . . ياإخوتي . . ياأبنائي ياطلابي الأعزاء . . ياعلي الشوفي . . يابطل .
لقد دهش أتم الدّهشة ، عندما رآه بعد أسبوع من قدومه إلى المدرسة . لقد عرف كثيراً من الحالات البائسة الشقية ، وقرأ عنها في الكتب أكثر ، ولكن الموقف كان نموذجاً!! فأمام عمود النور في البرد القارس رآه واقفاً يقرأ .
- أنت طالب في المدرسة ؟
- نعم أستاذ .
- عندي في الصف كما أظن ؟
- نعم أستاذ .
- ماذا تفعل هنا ؟
- أستذكر دروسي!! . .
- ماذا ؟ . . تستذكر دروسك ؟ وهنا في الزمهرير . . أليس عندك بيت ؟
- عندي ، ولكننا نسكن سبعة في الغرفة وقد انتهى زيت الكاز من الفانوس وليس معنا . .
وتذكر كل الأساطير حول جبل الدروز : اسطورة استعمال الخبز الأبيض كأدام داخل خبز الذرة والشعير الأسمر ، واسطورة السير صباحاً عشرة كيلومترات في الثلج إلى المدرسة . لقد قضى هو بالذات طفولة بائسة حقاً . . كان يدرس في دمشق وأبوه يعمل كالمستقتل لتعليمه ، وأخوه يدس في جيبه كل صباح بعض الفرنكات وكان هو يختنق بالعواطف ويرى في كل سطر يقرأه كدح أبيه ووجه أخيه الملطخ ببراده الحديد . . الوجه الصامت أبداً . . المعبّر دائماً .
وارتعش الأستاذ محمود . . العالم جميل ودافىء . . وأذرع حانية تمسح على شعره ، وأنفاس حارة تداعب وجهه وتقترب حتى تنفذ من سلسلة ظهره .
- أستاذ لقد وعدتنا بتحليل قصيدة ابن الرومي في الوطن .
وشعر بحرقة ومرارة وأجاب بصوت خافت :

- في دروس مقبلة .

وداعبت يده الورقة في جيبه . . الورقة ذات الخمسة الأسطر .

« أمر إداري

(ينقل المدرس المتمرن محمود الادلبي من ثانوية السويداء إلى ثانوية الحكمة . . وعلى المذكور أعلاه أن يلتحق بمركز عمله الجديد بعد أربع وعشرين ساعة . .)

- ونصوص النثر ؟

- في الدرس القادم .

- تحدث لنا ياأستاذ عن الأوضاع عندنا . . تحدث لنا عن الحرية ، نريد أن نعرف ماذا يفعل الشيشكلي بالبلاد . .

(إذا لم يلتحق صاحب العلاقة المذكور أعلاه في الوقت المنوّه عنه فهو يعد مسرّحاً من الخدمة وفقاً لأحكام القانون ٣٢ الصادر في ١٩٤٢/٧/١١ والمعدل بتاريخ ١٩٥٢/٣/٥)

وشعر أنه يريد أن يتحدث إليه طويلاً . . أن يقول لهم أن البحث في الحرية أساسي ومفرح ، كفرحهم بالثلج الذي يدفع بالماء إلى أعماق الجذور داخل الأرض . أن يتكلم ويخبط على المنبر بيده مستهيناً باليد الحاقدة السوداء تمسك بتلابيبه . . أن يفعل أشياء كثيرة كما كان يفعل من قبل ، ونظر في الساعة :

- تداركنا الوقت ، سنتحدث عن كل هذا غداً أو بعد غد أمامنا وقت طويل .

وتصوّر رجلاً آخر جالساً في مكانه على المنبر . . أستاذاً آخر يحدق في العيون ويقول في اهتياج :

- الحرية ياإخوان . . الحرية أولاً ، لنناضل في سبيلها . . لنمت كي يعيش أبناؤنا مبتسمين سعداء .

وأنه سيدخل بعد أربع وعشرين ساعة قاعة جديدة ، ويتعرف على أسماء جديدة . . في بلدة نائية كنجمة لايكاد يدركها خياله . . تفصله عنها طرق وأوحال وثلوج . ثم يقول لهذه الوجوه والأسماء الجديدة كأنه يتمم درساً بدأه :

- لقد وعدتكم ياإخواني أن أحلل لكم قصيدة ابن الرومي في حب الوطن . . وكذلك نصوص النثر .

وينظر داخل العيون التي لم تفاجأ

- ووعدتكم أيضاً أن نتحدث عن الحرية .

وسيداعب في جيبه عند ذلك ورقة أخرى ، حقيقة سوداء تخشخش في جيبه مرة أخرى « يسرّح المدرس المتمرن فلان . . » إلى الطريق . . وشاربا أبيه الأشيبان يتهدلان في بؤس . وعينا أمه تعتبان وتعبدان معاً . . والسير المتجول . . والسجن والتعذيب ، والتنقل ضمن أرض الله الواسعة : مساعد صيدلي . . أجير محام . . كاتب عرائض . مدرس دروس خاصة . . محرر صفحة الوفيات والجرائم في صحيفة مشبوهة . . . والرجال ذوو السواعد يتقدمون يحملون في أيديهم ناراً عظيمة ، وكل المياه التي يوجهها إليها رجال بدون رؤوس ، ماكانت إلا لتزيدها اشتعالاً كأنها ترش بالبنزين . . والرجال ذوو الأعلام الممزقة يتقدمون . . وشاعر ذو ربابة يلتهب ويغني للبشر بصوت عميق :

أومن بالشاعر
الذي يدفىء بشعلته
ليالي الحفارين والبنائين
ليالي البحارة العاتية

عندما قرع الجرس خرج الطلاب بهدوء أخرس ، وظل الأستاذ محمود الأدلبي جالساً على المنبر يستعرضهم واحداً واحداً بعينين تحترق فيهما الدمعة . . إنه من المريح أن يقول لهم : ليس هناك غد ، ولابعد غد!! . سيكمل غيري . لن أرى المدير ولاابتسامته التي تلمع كالسيف ، ولعلي سأعرف ابتسامات أخرى أشد مضاءً وأقتل حقداً .

وأحنى رأسه مبتسماً لأحمد عاطف . . لاتقلق ياأحمد . . لاتخجل من الحساب . . أما النبيتات يأياسر . . تشجع يافهد نصر ياخالد نصر الصغير . . مع السلامة ياعلي الشوفي . . أيها الأسطورة . . وعندما خرج كل الطلاب أحس بفراغ لانهائي ، وطنت أذناه وهمس من أعماق قلبه :

- وداعاً .

* * *

الثلج ينهمر . . والأستاذ يبتعد عن المدرسة ، نقطة سوداء في المحيط الأبيض ، كان الصقيع يتكسر تحت قدميه وهو ينتزعهما منه بقوة وعزم .

١٩٥٣

محطّة السبعًا وأربعين

لقد سمعت الفاشستية من فم شرطي قازان ،
قبل أن أقرأ كلمة واحدة لنيتشه .
(غوركي) «جامعاتي»

عندما يعرف الانسان خصمه ، يعرف خطته وأساليبه وطرقه في المناورة ، يحس بلذة حينما يقاتله . . لذة تشبه الوَجْد . . فهل هنا عدو كُفء ، إذا انهزمتَ أمامه مرة . . فلن تشعرَ بالعار فأمامك معارك أخرى . . المهم أن جزءاً عظيماً من حياتك أصبح متعلقاً بوجوده ، بألاعيبه ومفاجآته . . وكم هو شاق وبارد ذلك الفراغ الذي تحسه عندما تنتصر الانتصار النهائي . ان مرارة الهزيمة أهون شأناً من ذلك الفراغ . . .

ولكن طريق دير الزور الحسكة ، كان من هؤلاء الخصوم الذين لايُقْهَرون . . .

فعندما يصل السائق إلى دير الزور ينزل من سيارته فيفحص الفرام ، ويكشف عن الزيت ، ويطمئن على الهواء ، وينظر إلى سطح السيارة المليء بحقائب الركاب بقلق ثم يرمق الغيوم . . وبعد أن يسأل عن « الشيفروليه » التي سبقته ، وعن « الدودج » الذي سبق المطر إلى الحسكة ، ويطمئنّ إلى أن سائقيها قد أخبرا الدير بالهاتف أنهما وصلا بالسلامة دون أن تحدُثَ حادثة . . . يجلس وراء مقعده وينفخ يديه ويأخذ نفساً طويلاً ثم يهمس :

– ياساتر يارب .

ويبدأ الصراع . .

في البادية يبدو المكر متخفياً وراء التراب ، فليس هناك طريق معين!!
هناك ألف طريق كلها تُفضي إلى الحسكة ، ومن الصعب ، إلا إذا كنت قد أمضيت عشرة أعوام تذرع الطريق ، أن تعتمد على درب خاص تسلكه . وكل سائق يزعم أنه يسير على الطريق الوحيد القصير السهل ، ولكنهم مع ذلك كانوا كثيراً ماينقطعون في البادية يوماً ويومين ، حتى تأتي سيارة الدرك وتنتشلهم من المستنقع الذي غاصوا فيه .

ذلك أن البادية تصبح بركة من الوحل في أعماق الشتاء ، وتظهر الدروب من بعيد وكأنها خطوط تفضي إلى البحر ، وعوضاً عن السراب الذي يأخذ بريقه الأبصار في حمّى الصيف ، تمتد أمامك برك حقيقية ، تحتار في أيها تخوض وأياً منها تتجنب ، لقد كشّر الدرب عن أنيابه العكرة الرمادية ، ومد طرقه أمامك كرجل الأخطبوط فيجرك قليلاً قليلاً نحو الأعماق الباردة ، وعند ذلك ، تصغر كل خبرة لهؤلاء الدهاقنة العتق ، الذين ظلوا ينقلون الركاب بسياراتهم بين الدير والحسكة طوال عشرة أعوام أو تزيد .

وكم يبدو علم الجغرافيا في تلك اللحظات ، علماً عاطفياً إلى أبعد حد . . فلم تبقَ الدير أو الحسكة هي الشيء المهم الآن!! المهم بضعة بيوت من اللبن والطين ، ومخفر درك ، وقهوة كراسيها مسنة متخلعة ، وماء آسن من تجميع قطرات المطر ، وبضع ذُبالات من أضواء تتراقص في العاصفة برعب . وتبدو هذه المحطة عاصمة الدنيا بالنسبة للسيارة وراكبيها ، فبعد مئة وثلاثة كيلومترات من الطين والوحل والبحرات والانزلاق والتيه ، تظهر محطة (السبعة وأربعين) بر الأمان ، حيث يتوضح بعدها الطريق ، ويصبح أسود لامعاً معبداً بالاسفلت حتى الحسكة . .

إن علم الجغرافيا أمين على تسمية الأشياء بأسمائها ، بما تشتهر به . . وهو قد حبى هذه القرية الحقيرة بأعظم اسم في مخيلة سكان تلك المنطقة ، بالاسم الذي يبعث الأمل والحب والمرح في قلوبهم ، بالرقم الواقف بين حدود الأبدية المؤلفة من مئة وخمسين كيلومتراً . . ففرقها مئة وثلاثة ، وسبعة وأربعين . وأعطى للقسم الحي الضاحك هذا اللقب (قرية السبعا وأربعين) .

ولكن ماذا يعني كل هذا بالنسبة لمعلم منقول من السويداء إلى الحسكة ؟

عندما خرجنا من دير الزور كان الجو مجللاً بالصمت . . وسقوط المطر متوقع بين لحظة وأخرى . . السماء عجيبة تتوازعها أصناف من الغيوم الثقال تنفصل وتترابط إلى مالانهاية ، وساعة المساء كانت مقبلة فلم نحس بها ، ذلك لأننا لم نر الشمس منذ أيام أربعة .

يالها من نقلة بائسة . . فعندما تركت السويداء كان الثلج حتى الركب ، والصقيع يغرز في العظام كلسعة الكهرباء ، وطوال الطريق من السويداء . . حتى دمشق . . حتى حلب . . حتى دير الزور . . كنت أرفع قدميَّ المتجلدتين عن أرض السيارة وأفركهما حتى أشعر أنهما جزءان مني . . بينما نزعت أخيراً أنشوطتي حذائي نهائياً لأخفف من رصه عليهما . ولأول مرة . . رأيت رجلاً عجوزاً في (الرقة) يدفن رجليه في رماد منقل خبت ناره منذ لحظات ، وهو يتلمظ في لذة منكرة .

كان الشيء الذي يحتل تفكيري هو الفضول . . الفضول لكل ماأراه وأسمعه . . لهجة جديدة ، تصرفات جديدة . . مناظر جديدة . وكنت أستنشق الحياة مع الصقيع ، فلم تكن الرحلة خالية من المفاجآت والزخم بحال . . وكانت خيالاتي منصبة كلها على الحسكة . . القبائل ، البدو . . القتال . . العاصفة ، حيث لايحجبك عن الريح والمطر إلا نسيجٌ من شعر مرقع ألف رقعة . . على الناس الذين تؤلف الخيل جزء من أجسادهم ، على الانسان الذي لايساوي هناك الطلقة الناريّة التي تتربع في أمعائه . . على قصص الصحراء الخيالية حيث يعتبر رد فنجان القهوة إهانة لايغسلها إلا الدم ، عن المِنْسَف الذي لايقدر على حمله عشرة رجال . . وكنت أتصور البدوي . . ملك هذه الأرض البالغة الاتساع ، كما يتصور الطفل أحد مرَدَة الأساطير . . وكنت أتمنى أن أشهد معاركهم التي تدور في الليل حول اختطاف امرأة ، أو انتقام لثأر أو ضيف ، أو سرقة نعاج . . حيث يعلم الواحد منهم أين يضع رصاصته في ليل لايعرف الانسان مكان يديه . . أتمنى أن أسمع الأهازيج ، ومراثي القتلى ، وأشم رائحة نارهم الخاصة . . ياله من عالَم كبير . . كبير؟!

* * *

كانت أضواء السيارة المندفعة تكشفُ عن أرض ممتدة كراحة اليد ، وقد يصطدم طائر مذعور ، أو فراشة حائرة بزجاج السيارة بين حين وآخر ، طيور متوحشة تعيش على النبات القليل الذي يتموج في بعض مساحات ضيقة من الأرض ، وكان جاري السمين في المقعد يهوَم ويشخر قليلاً في صوت رتيب يتساوق مع هدير المحرك ، ويميل عليَّ بجسده حتى ليكاد يسحقني ، فلا أستطيع بين حين وآخر إلا أن أسعل في أذنه حتى يفيق ، أما بقية الركاب فقد استكانوا جميعاً وانكمشوا في مقاعدهم ، وخفَت ضجة الحديث ، الهم إلا بعض همهمات غنائية كان السائق يسلّي بها نفسه حيناً بعد حين .

انقطعت الهمهمة الغنائية فجأة وحل محلها صوت ناقم خافت :
-العمى!!
ونظرت إليه . . خيّل إليّ أن عطلاً ما قد طرأ على السيارة . ولكنه مد يده إلى ماسحة الزجاج وأدار زرّها . .
فعلى الزجاج كانت دموع كبيرة جداً تتزلج بسرعة ، وتغيض في النهاية متسربة على غطاء المحرك . . وتابع السائق بنفس الصوت الخافت .
-ابتدأنا . . .
وأمسك بمقود السيارة بقوة ، وأصلح من جلسته ، ثم أشعل سيجارة وأخذ أُهبته للمعركة المقبلة . . .
ولكن المعركة كانت قريبة جداً . . فبعد لحظات ، أفاق ركاب السيارة جميعهم على زمجرة الرعد ، وخطف عيونهم لمعان البرق ، وطغى صوت المطر على صوت محرك السيارة نفسه . وارتفعت بضعة أصوات قائلة بغبطة :
- الله يبعت الخير
فأجاب السائق بغلظة :
- فهمنا الله يبعت الخير . . لكن ليس هنا . . ثم همس كأنه يبتهل . .
- لو نصل فقط إلى السبعا وأربعين!!
فقال أحدهم من ورائي وهو يتثاءب :
- توكل بالله يارجل . . صار لنا ساعتان ماشين ، ساعة ثانية والسبعا وأربعين قدامنا .
أجاب السائق وهو يرفع سيجارته بغيظ :
- أول البارحة - الله يبعد عنا - بطّقت أربع سيارات كبيرة شحن ، وواحدة تكسي . . غاصت كلها في الطين حتى منتصفها . . . الأرض شبعانة ، ونقطة مطر مثل هذه تثقبها كالمسمار ، بعد دقائق سنبحث لاعن الطريق لكن عن طريق بين الماء!!
فأجاب نفس الصوت :
- صل على النبي أبو ابراهيم . . مالك جديد هنا ، فاني عمرك في الطريق . . . ميسَّرة إن شاء الله . .
إفاق جاري السمين واستمع إلى آخر الحديث ثم مال بجسده إلى الأمام وضرب على ركبتي دون أن يعيرني أي اهتمام وقال :
- الله ياخذ هيك حكومة!!
وحاول أن يعود للنوم . .

- قلت له :
- السبعة وأربعين
فأجاب بلهجة متعبة
- السبعا وأربعين ؟ مالها السبعا وأربعين ؟
-مامعناها ؟ هل هي إشارة ؟
فتح جاري عينيه إلى آخرهما بدهشة شديدة ، لأول مرة نظر إليَّ من أسفل حذائي حتى ناصية رأسي بازدراء عظيم وقال بهدوء :
- منين أنت ؟
- من الشام .
فطقطق بلسانه عدة مرات قبل أن يقول :
- شامي آ . . . أهلاً وسهلاً . . . السبعا وأربعين ؟ الآن سترى ماهي السبعا وأربعين . . . مدينة عامرة (واهتز كرشه بضحكة خفيفة) سترى أن الوصول إلى بيتك لايشعرك بالراحة مثلما . .
وقطع حديثه فجأة ونظر إليَّ بنوع من التحدي :
- ستتعب كثيراً هنا . . الشام ظريفة آ (ولكزني بمرفقه) أنت مُلاَّ [1]آ ؟
وسكت كأنه ينتظر ردِّي ، أما أنا فقد شعرت بشيء من المهانة للطريقة التي يتكلم بها ، ولما لم أفتح فمي بكلمة ، فقدتُ كل مايشعره بوجودي في لحظة واحدة . . أغمض عينيه الخضراوين الغائضتين في كتلة من الشحم المترهل ، وعاوده النوم بسرعة .
كنت أحس أن أعصاب الركاب جميعاً متوترة ، فبعد السكون العميق الذي كان يخيم على الجو . . أخذوا جميعاً يتكلمون ، كانت أحاديثهم بمجملها منصبة على المطر . . وكانت القصص تروى عن (البطق) حيث تنقطع السيارات أياماً في البادية . وزعم أحدهم أن سيارة ركاب كبيرة قد نهبها البدو ، وأن المسافرين صاروا يأكلون الحشائش ، حتى أنهم ذبحوا كلباً شارداً اجتذبته رائحة الانسان وأطعموا من لحمه الأطفال! بينما قال آخر أن سيارة الدرك المعدّة لانتشال السيارات المنقطعة ، معطوبة منذ يومين ؛ وهي جامدة في السبعا وأربعين ، وأن تصليحها لايتم إلا في حلب أو دمشق .
وكان الفلاحون الذين كانوا ورائي يتحدثون بسرور عن سنة الخير هذه وعن أن الأرض قد شبعت ولن تحتاج بعد إلى أمطار أخرى .

(١) المُلاَّ باللغة الفارسية والكردية والعراقية العامية : المعلم أو الشيخ .

اشتدت زخات المطر حدة على زجاج السيارة ، وكنا لانرى من خلال المدى الذي تطاله أضواء السيارة إلا هذه الخيوط المتدفقة من الماء . . وأخذت السيارة تترجرج وهي تنزلق في البرك وتنحدر في الحفر ، ثم تثب من جديد . . وخيم الصمت . . صمت متوفز قلق ، العيون كلها تنظر عبر الطريق ، واستمرالصمت حوالي خمس دقائق ليقطعه السائق بصوت يائس :

- يلعن دين والدك!! .

هب الجميع ورفعوا رؤوسهم إلى الأمام ، واستفاق جاري دُفعة واحدة . لم نعرف ماذا يعني السائق بشتيمته ، ولكننا كنا جميعاً نشعر أن شيئاً ما مخيفاً قد وقع ، انحنيت على الزجاج الأمامي فإذا بالسيارة تسير في بحيرة حقيقية . الماء يجري فيها هادراً كأنه الفرات ، والسائق يراوغ ذات اليمين وذات اليسار بدون فائدة ، فالأضواء كانت لاتقع إلا على الماء العكر . .

وصاح صوت :

- بطقنا ياجماعة . .

وكأن هذه الكلمة فتحت كل ماخزن في قلوب هؤلاء الركاب من كلام . . فأخذوا جميعاً يتحدثون :

- الحق على السائق .
- ترك الطريق الزين ومشى بالماء . . .
- ياجماعة روقوا بالكم وصلوا على المصطفى .
- الولد مريض ومايقدر على تحمل البرد .
- والله بخمسة أيام لن يجدونا .

قال جاري السمين وهو ينظر إليَ وكأني أمثل عنده دمشق والحكومة التي فيها .

- الله ياخد هيك حكومة . . شاطرة بس تاخذ مصاري العباد وتتركهم شاردين بالشول .

صرخ السائق بصوت كالرعد علا على كل الأصوات :

- بس ياجماعة . . العمى . . . بيعونا سكوتكم . . . عميتم قلبنا . . يلعن دين أبو هالصنعة ودين السيارات ودين اللي ابتدعها . . ودين اللي يركب بيها . . والله ركب الحمير أشرف . بشرف النبي . . .

ولم يكمل السائق صراخه حتى أحسسنا بخبطة هزتنا ، ثم وقف المحرك فساد سكون عميق . .

أدار السائق المحرك مرة ثانية كبس بقدمه على المسيَّر فأخذت السيارة

تهتز وتلهث دون فائدة . . دفع بقدمه إلى آخرها وبدا صوت العجلات كأنين حيوان مذبوح ، ولكنها كانت تدور في مكانها لاتتقدم خطوة واحدة . . . وشممنا رائحة المطاط المحترق من فرط الاحتكاك .

أطفأ السائق المحرك ونزل يستطلع الأمر . . فتعالى صوت بكاء طفل مع همهمة ساخطة لشيخ عجوز . . وبعد قليل عاد السائق ورجلاه حتى الركبتين ملطختان بالوحل . . فجلس على كرسيه ، وتنفس بهدوء كأن مهمته قد انتهت ، وبعد أن ظل ساعات يعيش على أعصابه ثم قال :

– سمك الطين أربعون سانت . . يجب أن ندفعها . ساعدونا ياشباب .

سأل أحد الركاب :

– هل السبعا وأربعين بعيدة ؟

– أظن أنها على مسير ساعتين مشي!!

– ياحبيبي على الحميّة . . والسيارة ؟ نتركها ؟ نلعنها ؟ الكل قادرون على المشي ؟ . . أما شباب زفت . .

قال رفيقي السمين :

– لاتضيعوا الوقت بالعلك . . يالله ياجماعة انزلوا ندفعها . . هي دفعتان وتطلع . . الرجال يزحزحون الصخر .

نظرت إلى بذلتي اليتيمة برعب . . كيف أنزل في هذا المستنقع الموحل ؟ . . من الذي سزيل البقع عن البذلة في بلدة ليس فيها كواء واحد ؟ .

– هيه شامي . هل فهمت الآن ماهي السبعا وأربعين ؟ قل معي الله يخزي هيك حكومة . .انزل أخوي انزل . . . ، قال شيشكلي قال!

رفعت ساقي البنطال حتى ركبي بعد أن نزعت حذائي وجوربيّ . . بينما كان السائق يقول بشراسة لبدوي غارق في مقعده لايتحرك :

– وانت يابو الفوارس . . قاعد مثل النسوان ؟ . . تحرك . .

ولكن البدوي قال بهدوء :

– والله ياأخي لاأقدر . . أنا ساخن والبارحة طلعت من مستشفى الدير .

– باطل باطل معافى . . قالها بسخرية مرة .

أجاب البدوي بهدونه السابق : – الله يعافيك .

غصنا في الوحل . . وتوازعنا أمكنتنا على أطراف السيارة . كان جاري السمين يقود الحملة . . انت ياعم ايدك على الرفراف وانت أمسك من هنا . . . ياله ياشباب اليوم يوملكم واحد اثنين ثلاثة . .

ودفعت مع الرجال ودفعت ، وظلت اعجلات تئن ، واستطعنا أن نحرك السيارة متراً ، مترين ، ولكنها كانت مع ذلك تغوص كلما تقدمت ، وبدا أننا ندفعها إلى جب عميق وأن لافائدة من أي شيء .

وارتفعت الأصوات :

– مافي فايدة المشي للسبعا وأربعين أشرف .

– ناس يحملون الأطفال وناس الأمتعة .

– السبعا وأربعين قريبة ساعتين مشي وبس .

في تلك اللحظة رأيت البدوي المريض يمد رأسه من الباب ونزل . كانت عيناه السوداوان تتفحصان الأفق بنظرة ، ووقف يستمع إلى الأقوال بصمت .

قال السائق من الداخل :

– أنا سأنا بالسيارة . . اتركوا الأمتعة وابعثوا لي من السبعا وأربعين سيارة الدرك .

فرد عليه أحدهم بغيظ :

– اللّه ياخذك وياخذ سيارتك .

– اللّه يسامحك . . ياجماعة انظروا إلى خلق الله . . أنا ماهو ذنبي ؟ هذا مطر ؟ هذا سيل . . يلعن دين . . .

قال البدوي فجأة بصوت خافت :

– هذا ليس طريق السبعا وأربعين هذا طريق الرقة . . تهنا عن الطريق .

-ماذا ؟

قالها الكل باستنكار وغضب ، وحدجوا البدوي بدهشة بينما غمغم السائق :

– لك المسطول لك . . روح بول على نفسك ونام . . انت رايح تعلمني صنعتي . .

ولكن البدوي قال :

– السبعا وأربعين بعيدة أكثر من عشر ساعات مشي ، هذه أراضي عشيرة جبور . . هذه أرض مفلوحة وليست أرض بور . . أنا أعرفها زين .

– ليك التيس ليك . .

قالها السائق وقد شعر بقلق ونزل يستطلع .

وتابع البدوي كلامه :

– ساعتين مشي مغرّب نصل لمشروع مفلح الجدعان ، أحسن شيء أن نسير إلى هناك!!

أدخل جاري السمين يديه في الماء ثم رفعهما ونخر غاضباً :
- إي وربي أرض مفلوحة ، ضاربك العمى وطالع من الطريق ، صارلك ساعة تسب وتشتم وانت تيس ابن تيس . وتصايح الاثنان ففرقهما المسافرون . وانصرفت الأفكار إلى الخروج من المأزق قال السمين للبدوي :
- تعرف الطريق زين لمشروع مفلح الجدعان ؟
- أعرفه زين .
- أنا من جهتي سأذهب معك من يروح ؟
وساد بعض الصمت ثم وافق اثنان آخران فنظر إليَ جاري وقال :
ملاً . . معلم أفندي . . تروح معنا ؟
نظرت إلى البدوي فوجدته واثقاً من نفسه بصورة مطلقة ، وبحثت الأمر من كل وجوهه ثم قلت :
- أنا معكم . .
- ياالله ياجماعة . . اتركوا أغراضكم في اللسيارة وسنرسل لكم من هناك - إذا يسّر الله ووصلنا - معونة وأكل . . آله معكم . .
وعندما ابتدأنا السير ونحن نرفع رجلاً من الوحل لنضع أخرى ، انضم إلينا ثلاثة آخرون . أخذنا نتبع البدوي صامتين ،لانهتدي خلال الظلام الدامس إلا على صوت وقع أقدامنا في الماء .
قال جاري السمين الذي كان إلى جانبي :
- هيه شامي . . ستتعب كثيراً . . هاي الجزيرة وليست الشام .
قول معي الله ياخذ هيك حكومة . . آ ؟ الله ياخذ مواعيدها وشيشكليها ، شاطرين بالحكي بس . (قال حمار طقّع نار جاوبه اسمع وسطّح) قول معي قول . . قول ياملاً قول . . تفوه . .

* * *

كنا أعجب قافلة في الدنيا . . لقد أصبحنا جزءً من الطبيعة فلم يعد يؤثر فينا البرد أو المطر . . التصقت ثيابنا بأجسادنا وهي تعصر ماء . . الحقيقة الكبيرة التي كنا نشعر بها هي المطر والظلام ، وهذا البدويّ الغامض الصامت الذي كان يسير كأنه قطعة من الليل ، أحسست شيئاً فشيئاً أنني أنفصل عن العالم القديم ، وأني بسبيلي إلى دنيا جديدة قاسية وفظّة ولكنها أصيلة ، دنيا

لايفتن بها سوى عُريها اللانهائي وصراحتها المطلقة ، لاأدري بماذا تفكر هذه الرؤوس السبعة التي ترافقت معها . . لعل كلاً منهم يحلم ببيته ودخان أعواده المحترقة وزوجته وأولاده . . بالدفء ، والشمس ، والربيع ، وموت الجابي ، والانتهاء من الحكومة أو المالك . كن كل منهم يحمل سره معه ويطويه في صدر أعمق من ظلام هذا الليل الرهيب . أما أنا فلم أكن أحس بأية خيبة أمل ، رغم أنني لم أكد أغمس لقمتي في هذا الطعام المسموم . . ورغم أن الأمور جرت بسرعة مذهلة حتى كنت لاأقوى على التفكير ، لقد كنت أتصرف باستسلام من دهمتموجة ا فترك نفسه لها ، لكل آلامها وأفراحها . لم أفكر بالمقاومة ، وإلا كنت ناشزاً في هذه السمفونية الفاجعة .

كنت أحس مع كل نقلة مؤلمة من قدمي أنني أعبّد طريقاً جديدة ، وأن كل آلامي أصبحت ضرورية ضرورة آلام المكتشفين والمغامرين . . وهاأنا ذا أضع قدمي على أرض مَوات ستخصب بالموت أو الفرح ، هاهنا تبدو كل أفكار الانسانية متساوقة مع عري الحياة البدني .

قطع جاري السمين الصمت بصوت غاضب :

– ولَك ياولد . . مشينا أكثر من ساعتين . فين قرية الكلاش (١) أين الكلاش مفلح الجدعان هذا ؟

فأجاب البدوي باقتضاب :

– قربنا نصل . . الصبر زين العجلة شين .

–أخاف أن تكون تُهت أنت الآخر .

فردد البدوي بصوته السابق :

– قلت قربنا نصل . . الصبر زين والعجلة شين . .

– فين ساكنة جبور .

–مغرّب .

أيّ جبور ؟

– جبور الفاضل . . جانب حرف الجبل . . عند البقارة (٢)

– بقارة الجبل ؟

– اي نعم .

– الشيخ سليمان صاحبي .

---

(١)الكلاش : الخف .

(٢) جبور والبقارة والشرابين عشائر عربية تسكن منطقة الجزيرة شمالي سوريا .

فلم يرد البدوي .
- من أي عشيرة أنت ياولد ؟
- شرابي .
- شرابي ؟ .
- نعم . .
فأجاب السمين بتردد :
- تشرفنا . .
ثم قرّب مني وهمس :
- لاشرّابيين مشهورين بسرقة الخيل . .
ورفع السمين صوته :
- الشيخ حاتم فين ساكن اليوم .
- مغرّب الحسكة .
- ولد زين . . صاحبي .
فلم يردّ البدوي أيضاً .
ثم ساد الصمت من جديد .
وبعد مسير حوالي ربع ساعة قال البدوي وهو يشير أمامه :
- وصلنا!!
. . أمعنت النظر جيداً باتجاه إشارته ، فلم أر شيئاً مطلقاً سوى الليل المظلم ، ولكنني ماإن تقدمت عشر خطوات ، حتى سمعت نباح كلاب بعيدة أخذت تقترب ، وبدت بيوت اللبن والطين سوداء كقطع من الليل . . وأخذت الكلاب تقترب بنباحها المتوحش . صاح البدوي فينا :
- اجلسوا على الأرض . .
فلم أفهم شيئاً من جديد :
- اجلس على الأرض . . الكلاب متوحشة ولكنها لاتهاجم الجالسين!!
ولم يكمل كلامه . . وصلت الكلاب إلينا في اللحظة التي تربعت فيها بالطين . . فتحلقت حولنا وأخذت تنبح بشراسة وعيونها تضيء في الظلام كجذوة حمراء . كان قلبي يخفق برعب ، وتذكرت بعض حوادث كلاب العرب التي تمزق الناس في الليل كالذئاب الضارية .
وكان يبدو أن هذا العذاب سيستمر إلى أن ينتهي فضول الكلاب الخائف فتتجرأ على الهجوم ، عندما انفتح باب قريب ، فظهر خيط عريض من النور ووقف على عتبته شخص طويل ضخم في فمه سيجارة . . يلبس بنطال ركوب

الخيل ، وجزمة طويلة عسكرية وعلى جنبه مسدس ، وبدا لي كأحد أصحاب القصور القساة كما تُصوّرهم الأفلام السينمائية .

صاح بصوت غليظ :

- من هناك ؟

فأجاب السمين بصوت متحشرج :

- ضيوف مقطوعون .

- منين ؟

فقال البدوي :

انقطعنا بالسيارة يامفلح بيك . .

فأجاب الصوت بتردد :

- ياحياكم الله . .

كان الحوار يجري متقطعاً بين نباح الكلاب الهمجي فصرخ بها مفلح :

- كوش كوش . . كوش . .

فابتعدت الكلاب وهي ترسل شرارات نظراتها الغاضبة إلينا . . وقمنا ونحن نتحامل على أنفسنا ، وتقدمناإلى المكان المضيء . .

وأفسح لنا المضيف الطريق فدخلنا إلى مضافة كبيرة دافئة جداً . في منتصفها ركايا القهوة مع كمية كبيرة من الجمر . . وعلى المخدات كان يجلس رجال كثيرون نظروا إلينا بصمت وعجب .

منذ عشرين عاماً نقل ضابط درك في الأربعين من عمره إلى الجزيرة ، كان يبدو قاسياً جلاداً أمام الفلاحين ، وكانت العشائر التي لايجسر أحد على التعدي على تخوم أراضيها سواء أكان المعتدي ابن حكومة أو غيره تقول : إن الجزيرة لها بلاءان ضابط الدرك الجديد وانحباس المطر .

وبقدر ماكان ضابط الدرك الكهل متكبراً أمام الناس ، كان آية في اللطف والكياسة مع الفرنسيين ، فكانت ترقياته تتتالى بسرعة غريبة . . وهذا الضابط الذي جاء من دير الزور يداً من قدام ويداً من وراء ، أصبح بسرعة البرق من أصحاب الثروات الضخمة . . فكل مخفر درك في طول المحافظة يعرف هذه الحكمة : مالقيصر لقيصر ومالمخفر الدرك لمخفر الدرك! فكانت غنائم وأسلاب اليوم من شوال برغل إلى تنكة سمن ، ومن خروف سمين إلى عشر دجاجات منقنقات ، ومن ثلاثة كيلوات تنباك إلى ثلاثمئة بيضة - عدا عن الأموال العينية - كل هذه الغنائم كانت تقسم إلى قسمين : قسم إلى ضابط الدرك وقسم للمخفر . وكان النظام يثير الاعجاب حقاً ، فلا سرقة

ولاتلاعب ، فلكل مخفر دركيَ خاص سري لايعرفه الآخرون هو عين القائد على الأسلاب حتى لايخفي أيَ مخفر شيئاً من محصول اليوم . وكان لهذا الجاسوس راتب خاص لايتقاضاه إلا في مركز القيادة! . وإذا تصادف أن تلاعب دركي في المحصول أو قصّر في فنون استجلاب الرشوة فالويل له . . . إذ أنه يتهم مباشرة بأنه سارق جبان عربيد معتدٍ على الفلاحين ، فيسرّح وينقل مع الاهانة والتشهير .

ولكننا نستطيع أن نقول إن هذه الصفة المشينة لم تلصق بأحد من أتباع القائد الباسل ، فقد كانوا مثالاً لقائدهم في الأمانة والحرص على أموال الدولة وأموالهم الخاصة .

وأشيع عن القائد أنه يخاطب دمشق رأساً بالتليفون ، وأن الفرنسيين في الحسكة والدير وحتى في حلب يتمنون له كلمة ، وأن له نساء كثيرات ، أكثرهن قد تزوج بهن خطفاً كرجل حقيقي لائق ببذته العسكرية ، وأنه لم يعترف لأيَ منهنَ بأولادها بل أرجعها إلى أهلها معززة مكرمة بعد أن أتاح لها شرف مضاجعته بعض الليالي .

وبقدر ماكان إله الجزيرة يكسب من منصبه كان يبذّر كل ذلك على طاولة القمار . . فبمجرد حصوله على مأذونيته السنوية - ويظهر أن نظام السنين كان في ذلك الوقت مختلفاً عما هو الآن إذ أنه كان يحصل في كل شهرين تقريباً على مأذونية أسبوعين يشاع فيها أنه ذاهب إلى تصريف أمور الدولة في دمشق - يذهب إلى بيروت أو عاليه أو بحمدون أو صوفر فيصرف أمواله كلها ويعود فقيراً متساوياً مع رعيته التي تشفق عليه فتجعله غنياً من جديد .

وفي عهد الاستقلال . . . بدأ نجم القائد يأفل قليلاً ، لا لأن المسؤولين في ذلك العهد قاوموه لاعتبارات وطنية ؛ بل لأنه أغضب بعض المتنفذين المالكين لأراضي الجزيرة والذين كان وزير منهم ممثلاً في الحكومة . . ولذلك ، وقبل أن يحاول التقاعد ، وبطريقة بارعة من طرقه الكثيرة ، استطاع الحجز على أرض كبيرة واسعة بين أراضي جبور والبقارة ، ثم اشترى بعض القضاة فسجلوها باسمه . فلما أحيل على التقاعد ، لجأ إلى أرضه يوسعها . وبمعاونة دركه السابقين صار يقتطع جزءاً من الأراضي المحيطة به ، حتى استطاع أن يصبح من هؤلاء العشرات الذين يملكون أكثر من مئتي ألف دونم .

هذا القائد الهمام هو مفلح الجدعان مضيفنا الكريم الذي وقف يرحب بنا بطريقة أشعرتنا أننا أمام سيد عظيم .

نظر إلى ملابسنا الموحلة المبللة وإلى هيئاتنا المحزنة ، ثم وقع بصره عليَ :

- منين الأستاذ ؟
- من الشام .
-معلّم ؟
-نعم .
فابتسم ابتسامة عريضة ثم قال :
- شايف الجزيرة ؟ لأجل أن تعرفوا ماذا نقاسي هنا نحن المزارعين المساكين!! قوم ياعبّود وانت ياصالح أعطوا الأخ عبأية وكذلك الأخوان وجففوا الثياب على النار .
شعرت بلذة غريبة في هذه المضافة الدافئة جداً وأنا أتصفح هذه الوجوه القروية الخشنة . . دارت القهوة مرات ومرات في صمت لايشوبه سوى عواء الكلاب من بعيد ، وغاب عنا مضيفنا لحظات بعد أن رافقه ستة من الحاضرين . . ثم عاد وحده وقال وهو يتنهد :
- أمّنّا كل شيء . . راحت المعونة إلى السيارة ، فقال رفيقي السمين بتأنٍّ :
- كلك شهامة يامفلح بك . .
- واجبنا . . أهلاً وسهلاً . .
وسكت قليلاً وتابع :
- خبّرنا الدرك . . معلومكم ، يوجد مخفر درك عندنا ، ولكنهم كانوا مشغولين جداً فاضطررت لإرسال جماعتي .
قلت متسائلاً :
- مشغولين ؟ وفي مثل هذه الليلة ؟ . . إن التقاط هؤلاء المسافرين أهم من كل شيء .
فأجاب المضيف وهو يرفع حاجبيه :
- في مثل هذه الليالي تكثر السرقات . . حولنا بعض الشرابيين وهم كثيراً مايسرقون القرى منتهزين فرصة العاصفة . فتنحنح دليلنا البدوي ولكنه لم ينطق بكلمة . .
كنت ولاشك سعيداً بالعباءة الفضفاضة ، جو دافىء ، ودخان تركي مهرب في غاية الجودة ، وشاي ساخن يدار في كل لحظة ، وروائح لحم ينضج تتسرب من شقوق الباب ، وفي صدر المضافة ، كان يطل من حين لآخر من وراء زجاج نافذة صغيرة مفردة ، وجه نسائي عذب ذو عينين واسعتين متوحشتين كعيني الغجر تنسدل على صدغيه جديلتان قاتمتان منفوشتان بعض الشيء .

وكـانت تنظر إليّ نظرة طويلة خـاليـة من أي مـعنى . . ولكنني كنت حالماً . . تصورتها واجمة معذبة تعيسة . . فكأنها إحدى بنات القصور وقد اختطفت من بين يدي حبيبها لتزف إلى مارد متسلط شرير . .

- الشـام . . الشام . . إنهم يقولون هناك بحسد ماأغنى الجزيرة!! . إن الأشخاص الذين يملكون هذه الأراضي هم في أعلى درجات السعادة . . إنهم يقولون ذلك وهم جالسون على مكاتبهم المريحة ، لاأتمنى لهم إلا أن يذوقوا ليلة واحدة من ليالينا كما ذاقها الأستاذ (وابتسم لي عن أسنان كبيرة بشكل غير عادي) ليعرفوا مامعنى نجوم الظهر ، مامعنى نجوم الظهر ، مامعنى الوحل والطين والغبار والبراغيث والثعابين ورائحة البدو التي تقزز النفس ، وليروا البدويات وهن يدهن شعورهن ببول الجمال . . ليشعروا بالرعب كل يوم لأن ظل البنادق معلق فوق رؤوسهم . . إنهم يحسدوننا على أرض مسمومة . . على أرض ملعونة ، تعطيها شبابك وصحتك ورفاهية حياتك فلا تبوء آخر الأمر إلابمأمور الضرائب والحاسدين .

وظهر الوجه الغجري بنظرته الغريبة من وراء النافذة ، وثبّت عيونه عليّ فخفق قلبي وامتقعت ، ونظرت إلى مضيفي ولكنه كان لايلاحظ شيئاً بل ظلّ متدفّقاً في حديثه وهو يمدّد رجليه إلى آخرهما على بساط المضافة :

-نموت في سبيل جر الفرات أو الخابور إلى القطن ثم تأكله الدودة . ونحرث الأرض في انتظار المطر ، ثم ننظر إلى السماء فإذا بها كأنها قد سدت بالنحاس من جميع أطرافها فلا تنفذ منه قطرة . وأخيراً عندما يكون المحصول الضئيل قد أكل حياتنا يسرقه الفلاحون الأنذال ، لفّها يارجل ، لايوجد أحلى من الشام وماء الشام وبنات الشام .

كان صوت مضيفي بعيداً كأنه همس ، لاشك أنني كنت أحلم . . أحلم بدنيا خضراء ، خضراء إلى نهاية الأفق . . أحلم بالفجر ، وركوب الخيل ، أحلم بغرفة دافئة مطلة على لوحة طبيعية لايمكن أن تُقلّد أو تتكرر . . أحلم بالصحراء يحرقها الجفاف ، أحلم بالحب والنشوة والفرحة والشباب . أحلم بوجه عيناه غجريتان متوحشتان تنوس على صدغيه جديلتان قاتمتان منفوشتان بعض الشيء .

* * *

- سيلانس

قالها مضيفنا ذلك العسكري المتقاعد فجأة بصوت كالرعد . .

-ماذا ؟ . . قلناها ونحن وجوم لانقوى على الحركة!
- مهلاً . . انتظروني . . هناك حادث . . اسمع طلقات نارية صادرة من مكان بعيد .
وهبَّ ويده على مسدسه ، وماكاد يفتح باب الغرفة حتى دخلت مع الريح الباردة أصوات طلقات أخريات صدرت من مكان قريب جداً!!
وسمعنا أصوات أقدام تخوض في الوحل ، وسباب ولعنات بلغة حاقدة ، وهمهمة رجال كالفحيح ، ثم اختفوا .
خرطش مضيفنا مسدسه وخرج كالسهم من باب المضافة يعدو ويصيح :
-الحقوني ياشباب!!
ونظر بعضنا إلى بعض ، ثم اندفعنا وراءه نتلفت يمنة ويسره . . غاصت رجلاي الحافيتان النظيفتان في الوحل ، ودخل الهواء إلى العباءة وتلاعب بها . . ولكني لم أكن أفكر بسوى الركض وراء مفلح الجدعان ، لأية غاية ؟ تحت أية قوة ؟ لاندري سوى أننا كنا نركض ونركض وراء الطلقات .
الظلام حالك جداً . . كنت أصطدم تارة بعجوز هانمة أقلقها الرصاص ، أو بحيوان ضائع أفزعته الضجة ، حتى وصلنا إلى السوق ، وهنا كان بعض أفراد من فلاحي أراضي مفلح الجدعان ينتظرون . لاشك أنه حادث رهيب أسقط أفئدتهم الواهنة وبعث الهلع في قلوبهم المطمئنة .
وهذه سيارة درك عتيقة أتت تعدو بسرعة وهي تقاوم الوحل فتصورت الدم . . النقالات . . وتصورت القيود والسجون والمشنقة والاعدام .
وقفت السيارة أمام المخفر ووقفت القلوب وحبست الأنفاس فلن تسمع فحيحاً ولاهمساً .
نزل دركي من السيارة صائحاً :
-ناولني إياه!!
فناوله إياه .
كانت جثة ضخمة جداً لفلاح . . وعلى أضواء المصابيح المتراقصة التي جُلبت من البيوت ، رأيت وجهه الممتقع المخضب بالدم ، والثقب العميق الذي يتوسط جبهته ، ولحيته البيضاء المشوّشة ، وكانت عيناه الصغيرتان مفتوحتين على نظرة دهشة ورعب .
نظر الدركي إلى مفلح الجدعان وإلى الوجوه التي تجمعت حوله وقطع الصمت قائلاً بنبرة انتصار :
- لقد طاردناه طويلاً وأخيراً اصطدناه .

وضحك بغباوة مثيرة .
وقال مفلح الجدعان مستفهماً
-ولكن ماذا فعل ؟
- سيدي كان يحاول السرقة ولقطناه بالجرم المشهود . .
وأسرع إلى السيارة يفتح بابها ، وأنزل كيساً صغيراً مليئاً بأوراق خضراء مبللة لقطها الفلاح الشيخ من خُرج قريب تابع للحكومة ليطعم بها ماعزه الجائع!! وطورد من أجله ، ودوت فوق رأسه رصاصات قاتلة ، وأصوات قاسية كانت تقول له قف . . قف وإلا . . وهاهو ذا يقف ، ويستدير رافعاً يديه وينشج بتوسل : وهاهي رصاصة محكمة تستقر بين حاجبيه . ونظر إلينا مضيفنا ثم قال وكأنه يتابع حديثه :
- أتعبنا أنفسنا بحادثة تافهة . . ألم أقل لكم ان الفلاحين لصوص! . . جنس عاطل يستحق الشنق ؟
ثم استدار إلى المضافة!!



الجوزات الثلاث

آه . . من لي بلمحة منعشة لساق عشبة واحدة ، بنشقة من شذى حفنة من الأرض الصلصالية ، أليس هناك من شيء طازج حولنا ؟
(هرمن ملفيل)
«الجزر الوحشي»

أوقف أبو صلاح المكنسة واتكأ عليها ، ثم سرح ببصره نحو الهياكل الحجرية الضخمة ، التي تنتصب في حمرة الأصيل تاركة ظلالاً مستطيلة . . كان السكون سائداً ، فالطلبة انصرفوا إلى بيوتهم إلا بعضاً منهم لايزال في المطالعة ، فلا يصل إليه من ضجتهم غير أصوات خافتة كرجع بعيد ، وسكت رنين أجراس المدرسة المتواصل الذي يجعل أبو صلاح ينتصب بسرعة ويَظْلع جاراً رجله العرجاء نحو الحائط ، ليعرف من لوحة الجرس أية غرفة تطلبه .

كان يصل إليه عبر السكون السائد صوت مطحنة أحجار قائمة أمام بناية بعيدة ، وخيّل إليّ أن في عينيه الكنيبتين البارزتين في وجهه الممتلىء بالتجاعيد العميقة ، نظرةً حاقدةً مرّة .

نادتيته دهِشاً من رؤيته :

– أبو صلاح!!

ولم يسمعني . . لقد كان في صوتي بُحَة قليلة من الرهبة القديمة التي أحسها نحوه ، فمن منا نحن شبان الحارة الشياطين ، لم يكن في ذاكرته آثارُ من وقائعه ومعاركه مع أبو صلاح ناطور جنينة (التريا) المشهور الصارم ؟ فقد كان مرعب الأطفال الذين كانوا يخرجون لنهب القرعون ، والخوخ ، والرمان ، والفول ، من التريا . . أحفل بساتين المنطقة جميعاً بأجود أنواع الفاكهة التي تراود أحلام الأولاد .

إني لأتصوره تماماً بسرواله الأسود الفضفاض ، وبشملته الصوفية الرمادية التي لاينزعها أبداً حتى في آب ، يجوس بعينيه خلال مملكته الواسعة ، لقد كانت له قوة غريبة في اكتشاف أتفه الحركات بين مئات الأشجار ، فينساب نحوها بخفة رغم رجله العرجاء متستراً بجذوع الزيتون المعمرة ، فيلمحه أحد الأولاد فيصيح برعب جنوني :

- اجا ابن الحرام ياولاد . . . رجليكم بضهركم . .

وتندفع القذائف الحجرية من يديه الخشنتين كالقنابل وهو يهدر :

- آه ياولاد الكلب . . الرمّان . .

ويقف تحت الشجرة المنهوبة التي تكسّرت أغصانها ، وينظر إليها بأسىً عميق ، ويظلّ يومَه كلّه يضع لها الأوتاد ، ويصلح فروعها ، ويدور حولها ويتلمّسها كولد عزيز .

وفي حلقات سَمَرِ رمضان ، عندما كنا نجلس حتى السحور نتصارع في ضوء القمر كصغار القطط ، كان اسم أبي صلاح يتردد دوماً بين اللّعنات :

- أما فظيع . . ابن حرام عالمحَكّ!!
- لاينام الليل . . بل يبقى ساهراً حول الدكوك ، يراقب الأسلاك .
- يسمع من بعد نصف ساعة صوت ضرب الحجر على الجوز . .
- يأخذ الولاد اللي بيستفرد بهم ويذبحهم في الليل . . .
- حتى الشرطة بتخاف منّو . . .
- بتتذكر قصتو مع الشرطي اسماعيل الحلاوي ؟
- طيب لي كل هالولديتي حرام ؟ . . مع انه يكره أصحاب التريا للموت!!
- حبيبي طبيعة بالبدن مايغيرها غير الكفن ، عفريت من رجليه لراسه . .
- دائماً عابس . . مانزلت من عينو دمعة حتى عند موت ابنه علي . .

وفي يوم من الأيام ، غامرت ودخلت مربض الذئب .

كانت على طرف الدّكّ توتة شامية ، برز ثمرها من خلال أوراقها العريضة كشفاه حمراء مطبقة ، وكان نصفها يتدلى من وراء الدك ، فلم يُبقِ منها الأولاد وعابروا السبيل سوى بعض توتات لم تستطع حجارتنا أن تنال منها شيئاً . وهمست لابن خالتي بتصميم :

- لك صطيف . . توت . .!!
- لا ياحبيبي . . مالي مآيس على روحي!!
- بتخاف على ها الروح النجسة ياصطيف ؟

خجل ابن خالتي خوفاً من أن يعيَّر بأنه يخاف على (ها الروح النجسة)

ونططنا فوق الدك بهدوء ، وبعد أن تفحصنا المكان تسلقت الشجرة ، وأنا أتحسس ثوبي الجديد ، وجيبه الجانبي العريض ، الذي طلبت من أمي خصيصاً تكبيره على هذه الصورة حتى يتسع للمنهوبات .

ووقف مصطفى على طرف الدك ممتقع الوجه ، وهو يجوس بعينيه من خلال الأشجار ويهمس بخوف :

- استعجل ياسما . . ماملّيت الجيبة ؟

ولكني كنت مشغولاً بهذا الخط الأحمر الذي أخذ ينساب من حول جيبي ويلوث الثوب الجديد . . سحق التوت سحقاً أثناءتنقلاتي على الشجرة ، وتصورت القتلة المحترمة التي سآكلها ، وصممت على أن أتسلل إلى الحمام ، وأغسل ثوبي بيدي وأنام باكراً حتى لاتنتبه أمي .

صرخ ابن خالتي وهو يقفز من على الدك ويسابق الريح :

- أبو صلاح . . سليمان . . اجاك!!

لايمكنني أبداً أن أصور الرعب الذي تملكني ، فقد أخذت أتدحرج على الشجرة بسرعة غير عابىء بالجروح والخدوش التي تتركها في لحمي رؤوس الأغصان المسننة . . ووضعت رجلي المرتجفتين في القبقاب ، وأخذت أستعد لتسلق الدك عندما سمع صياحه :

- يابْن الكلب . . .

والتفت إليه وأنا أكاد أسقط ، وقلبي ينتفض فأسمعُه كمطرقة الحداد . . فرأيته ينحني على الأرض فيلتقط حجراً ضخماً ويقذفني به . .

أسرعت واختفيت خلف الشجرة ، واصطدم الحجر بها فهزها هزاً جعل التوت يتساقط حولي ، فانطرحت باكياً على الأرض .

- دخيلك عمي أبو صلاح . . هالمره بس . . أنا داخل على دين محمد!! .

ووقف أمامي كأنه يستمتع بفريسته ، ثم قطب وجهه لما عرفني وقال بغضب :

- يه يه . . العمى . . قلة مصاري عند أبوك حتى تسرق ، العمى أبوك بصوّل الذهب عالشراشف .

- دخيلك عمي أبو صلاح . . هالمره بس . . الله يخليلك ولادك ، الله يسترك . . أنا داخل على الله وعليك .

وأمسك بيدي وجرني من خلف الشجرة :

-امشي لعند أبوك . .

وتصورت الفضيحة . . لا . . أفضّل أن أموت على أن أذهب ، واستمددت من لهجته شجاعة وقلت :

- مالي رايح . . . موتني!!
فهز كتفه :
- أما جيل منحوس . . ملعون مطعون .
ونظر إليَّ طويلاً ثم قال مهدداً :
- هالمرة راحت . . إذا شفتك مرة ثانية هون!! (وبصق) كل بيت وله بلوعة .

وكرت الأيام ونسيت أبا صلاح ، وتلك الطفولة المتشيطنة كلها . . وتغير الحي وتغيرت (التريا) وقام أمام أشجارها الريانة عمارة حجرية ، وامتدت الفؤوس وقطعت الأشجار التي كان يناضل أبو صلاح في سبيلها . . وانكمش الزرع الأخضر دهشاً من هذا العالم الجديد ، وانسحبت الأشجار نحو الأطراف ، ثم تناقصت حتى لم يبق في كل التريا الهائلة سوى ثلاث جوزات هرمات . . تمشّى في أطرافها التآكل ، وظهرت جذورها من التراب الذي أخذ ينكشه العمال وهم يحفرون أساس البناية الجديدة ، ورجعت أنا أستاذاً في الثانوية الجديدة التي شيدت حديثاً في التريا نفسها .

كانت آلة طحن الأحجار لاتزال تعمّق السكون ، وخفتت ضجة الطلاب تماماً لوصول المراقب ، وفي مدى الأفق البعيد ، كانت الشمس قد تركت دمها في غيمات متناثرة في صفحة السماء ، وارتعشت رؤوس الأشجار متخيلة برودة الليل الموحش ، وفي أقصى جبل المهاجرين ، اشتعلت أضواء قليلة أخذت تتكاثر . . لقد بدأت قصة الظلام .

همست بوضوح :
- أبو صلاح . . .

فالتفت بسرعةٍ من تعوَّد على تلبية الأوامر ، ولما رآني لم يفاجأ بل تقدم مني يجر رجله العرجاء ، ومد يداً خشنة ملأتها الثآليل وصافحني بحرارة :
- أهلاً سليمان أفندي . .
- أبو صلاح . . انت هون ؟

فرفع يده باستسلام ، وخيل إلي أنه خجل ، وغمغم من بين أسنان خضراء مصفرة :
- إي والله . . متل مالك شايف . . بدنا نعيش .
واندفع إلى الردهة وعاد بكرسي وقال :
- تفضل!!
ولما دعوته إلى الجلوس ابتسم بارتباك وقال :
- تفضل ياأستاذنا . . العين مابتعلى على الحاجب .

ونظرت إليه بإمعان . . لاتزال الخطوط المتجعدة توحي بالصرامة ، ولم يتغير من الوجه الكنود الذي ينظر إليَ بغموض ، سوى الشاربين الكبيرين المعهودين ، وقد تشذبا ولصقا بالشفة العليا كفرشاة قديمة .

قال بعد صمت :

– واللّه مادريت غير البارحة ، قالوا لي الأستاذ سليمان انتقل من الجزيرة لهون ففرحت . . معلومك ماللحارة غير أبنائها .

قلت وأنا أحاول أن أجد مجرى للحديث :

– الله يبارك فيك ياأبو صلاح . صارلك زمان هون ؟

– من وقت ماتعمرت المدرسة .

– يعني من التريا للتريا . . المدرسة بدل الأشجار .

فقال كمن طعن :

– شو جاب لجاب ياأستاذ ، هي دنيا وهديك دنيا ، ولولا ماالأرض هي التريا كنت ماقعدت دقيقة هون .

– يعني مالك مبسوط من ها العمار وها الناس ؟

قال مغتاظاً كمن أثير له جرح قديم :

– ياسيدي أصحاب التريا مالهم مراق بالأرض . . واللّه شجرة واحدة تساوي كل ها البنايات الي شايفتها عينك أشَة لفَة . . هديك بتحسَ ياسليمان أفندي ، بتتنفس ، بتعيش . . هاي جنينة بهجت ، باع . . لكن ترك جنينة خاصة فيه . . لكن الطمع ياسليمان أفندي . . الطمع ضرَ ومانفع . . شفت . . ؟ الولاد ماكان لهم خاطر بالبيع ، أما الكُرْكمَة العجوز النَحْس ، فهو الذي باع ، وكما يقول المثل : االثلم الأعوج من الثور االكبير .

وصمت قليلاً وهو يمد يده ويأخذ سيجارة مني شاكراً بحركة من يده .

– شوف هلأ ياسليمان أفندي . الأرض هبَت كالنار ، ماقال المثل : خلي القمح بكواره لتجي أسعاره ؟ صارت الأرض الآن تطالع أضعاف أضعاف البنايات . . التفاح ثروة . . الخوخ . . الرمان . . كلّه هبَ . وكما يقول المثل : صاحبك القديم ذهبك القديم . لكن شو الفائدة ؟ . كل يوم أرى من هنا الفؤوس تطلع وتنزل وتقلع وتميت الخضار . . لكن كما يقول المثل : العين بصيرة واليد قصيرة . . انظر للتريا . . مابقي منها غير الجوزات الثلاثة ، شوف كيف مصفرّين ، شوف كيف قشرتهم يابسة ومشققة . . قال جحي باع بيته وخلا خازوق . . ولولا مابسقيهم ،وبلحقهم في أوقات فراغي لكانوا ماتوا ولحقوا بالتريا .

قلت متعجباً :

- لكن ياأبو صلاح . . شوبدك بكل هالصرعة ؟ ليش حامل هالسلم بالعرض ؟

فنظر إلي كمن فوجىء ، وفي نظرته قليل من الاحتقار :

- شوبدي ؟ . . مابدي شي . شايف هالجوزات التلاتة ياسليمان أفندي ؟ من ثلاثين سنة أنا زرعتهم وسقيتهم ، ونزعت الحشيش عنهم . . ربيتهم كأولادي . . هيك ياسليمان أفندي ، كل هاد لايهمني أمرهم ؟ لكن كما يقول المثل : مايحك جسمك مثل ظفرك . . لو كنت مزارع . .

فقلت مغيراً وجه الحديث وقد رأيته يتألم :

- بتذكر ياأبو صلاح . . يوم نزلت أنا وابن خالتي عالتوتة ؟

* * *

وذات يوم هوت الفؤوس وقطعت الجوزات الثلاث . .

ووجدتها وأنا أدخل المدرسة صباحاً ملقاة مهملة على الأرض ، رافعة جذورها المكلومة كأنها تعرض جراحها للشمس ، والأولاد يلعبون على أطرافها لعبة الثقل . . وانصرف فكري تواً إلى أبي صلاح ، وشعرت بانقباض . . وفجأة لمحته واقفاً على شرفة المدرسة ينظر نحو الجوزات مسمَراً بارداً مكمداً كأنه صنم ، وخيّل إليّ أن تجاعيده قد بدت أكثر عمقاً وتهدّلاً .

صعدت إليه ووقفت بجانبه لحظة صامتاً ثم قلت ببلاهة :

- أبو صلاح . . قطعوهم . .

لم يرد علي . بدا وكأن أي شيء في العالم لايعنيه . تكوّم كجذر عجوز نشف عليه التراب . ومرت عليه فترة طويلة وهو ساهم . كنا نقف معاً وأنا أتطلع نحوه بحيرة ، ثم انسحب مخفياً عني وجهه . ولكنني لمحتهما ، دمعتين كبيرتن حقيقيتين من العينين اللتين لم تعرفا يوماً طعم الدموع ، نزلتا واختفتا باستحياء بين خطوط وجهه .

وتثاقلت خطوات أبي صلاح في الرد على رنين الجرس ، وقلّت نظراته إلى لوحة الأرقام ، وصار يدخل الغرف مخطئاً بين واحدة وأخرى ، وانتبه المدرسون إلى القهوة الباردة التي يشربونها .

وقبل العطلة الانتصافية بيوم واحد ، اختفى أبو صلاح ، فعندما قرعنا الجرس طالبين القهوة ، ظهر بسرعة نشيطة ، وجهُ فتيٍّ انخطف لرد طلباتنا على رجلين سليمتين قويتين .

سنتان وتحترق الغابة

الناس لايستطيعون أن يرتكبوا إثماً على ذلك القدر من الروع .
(تولستوي) «الحرب والسلم»

بعد بكرا السحب . . . ياأستاذ . . خمسين ألف ليرا!!
– يحرق دن . . .
وتوقفت عن السب والشتم ، وحدقتُ في العنين . . ياإلهي . . الثالثة!! الثالثة التي تكلم عنها طويلاً طويلاً وهو يشرب الشاي بنهم ويتلمظ بشفتيه الغليظتن ، ويبسم عن أسنانه الصفر المسودّة . . إنها تشبههما لدرجة فوتوغرافية .
كانت عيناها تبتسمان بثكير من الكآبة والتعب والنعاس ، وتكاد تغيم منها المرئيّات المتراقصة في البؤبؤين الخضراوين العميقين اللذين لاحد لجمالهما .
وهزت أوراق اليانصيب في وجهي مرة ثانية ، وتأكدت للتو أنها لاتراني ولاتتميز سماتي مطلقاً في ذاكرتها . . . إنها أمام زبون قد يشتري أو لايشتري ، قد ينهرها أو يبتسم في وجهها ، والقلق الوحيد الجدي الذي ينتابها ، كان من خادم المقهى عدو البائعين المتجولين الأول .
– بعد بكرا السحب ياأستاذ . . خمسين ألف ليرا!!
ونظرت إلى صدرها . . . كان أمسح أعجف ، صدر ابنة في الحادية عشرة من عمرها ، وتصورت نهداً يثب ، وقواماً يلتف ، وعينان تداعبان بنظرة إغراء . . ياحلوتي . . ياصديقتي الصغيرة . . هل ستفعلين أنت

الأخرى نفس الشيء ؟ لقد عرفتُ هذه النظرة الحزينة من قبل ، عرفتها على وجهين في مثل هذا الجمال ، منذ المرة الأولى انطبعت خضرة العيون في ذاكرتي عندما اختفت عني في الوجه الأول اختفاءً طويلاً . . قد يكون إلى الأبد ، له عين التقاطيع والأهداب ، وبنفس القسوة اختفت من محيط المقهى إلى دنيا أخرى!! ترى كيف خضرة تلك العيون الآن ؟ ولمن تبتسمان ؟ والآن . . العينان . . النظرة . . الوجه . . الصدر الأمسح ذو المستقبل . . الردفان اللذان يبرزن شيئاً فشيئاً ليأخذا نصيباً من نظر الرجال .

- بعد بكرا الـ . . .

وانفتحت الحدقتان في دهشة يسيرة ، وصَفَت الخضرة في أعماق البؤبؤين مرجاً مجهولاًظليلاً . وبان شيء من التلعثم والخجل .

قلت لها باسماً بأسى :

- قرّبي ياحلوتي . . اسمك فاطمة ؟
- اي أستاذ .

واعترتني غصّة . . كم أتمنى أن أرسل نظرة خالصة السعادة إلى هاتين البحيرتين!!

- بعت كثيراً اليوم ياشاطرة ؟
- عشرة بس
- من الصبح ؟
- من الصبح

تحركت رجلاها بارتباك عندما نظرتُ إلى أسمالها .

- عرفتيني ؟

هزت رأسها باسمة

- لماذا لاتأتين مع أبيك لتشربي الشاي ؟
- لايأخذني!!
- هل طلبت منه ذلك ؟
- لا . . أنا مابشوفه إلا الصبح والمسا . . والباقي بكون في الشغل .
- هاتي ورقة . . لاليست هذه . . اختاري أنت واحدة . . ايوه من المنتصف . . ان شاء الله على حظك أربح وسنتقاسم . . آ ؟

ابتسمت في سعادة وتنفستُ بهدوء وأنا أراقب الغابة تصفو في رواء ربيعي آسر .

- قولي لي يافاطمة أختك فين ؟

وتعكرت البحيرتان برهة وتلفت الرأس الصغير حواليه :

- خديجة أم سعاد ؟
- ها . . أختان إذن . . أين الاثنتان ؟
- لاأعرف!!
- بذمتك
- وحياة النبي لاأعرف .
- سألتِ أباكِ ؟
-إي . . قال إنهما رجعتا إلى فلسطين!!
- بس ؟
- قال إنهما تزوجتا هناك .
- أتحبينهما ؟
- سعاد بس . . خديجة كانت تضربني وتسب أبي دائماً .
وساد صمت قصير
- موفقة ياحبيبتي . . الله يسهل لك . . لكن يجب أن ترجعي للبيت الآن ، تأخر الوقت . . آ ؟
- تأخرت كثيراً . . لكن مابعت خمس عشرة ورقة . . يجب أن لاأعود حتى بيع خمس عشرة ورقة .
- هل ينتظرك أبوك عندما ترجعين ؟
- لا . .ألاقيه نايم .
- ألا تخافين الرجوع وحدك في الظلام ؟
وسكتت قليلاً واعتراها الخجل ، ونظرَتْ من خلال زجاج المقهى إلى الليل المظلم .
- تخافين ؟
- أخاف كثيراً .
وتندت العينان قليلاً وبان فيهما الاجهاد .
- تشربين الشاي الآن ؟
-لا . .
وخفضت رأسها
- سلمي لي على الوالد
-الله يسلمك .
وابتعدت نشيطة بعض الشيء ، كأنما حرك فيها الحديث ، الطفولة الراقدة في أعماقها . وتهالكتُ في مقعدي أحاول أن أقرأ الصحيفة مرة ثانية . . ياطفلتي . .

وأشعلت سيجارة . . هل ستذهبين أنت أيضاً وتختفين ؟ هل سيقول أبوك لمن سيسأله عنك : ذهبت إلى فلسطين . . إلى الضفة الشرقية من الأردن وتزوجتْ هناك ؟

وتصورتُ الدرب الطويل إلى حي الميدان . . إلى بوابة الله ، من يعلم ؟ قد توفّر الفرنك فلا تركب في الترام ، وتقطعه ماشية ، يخيفها كل عمود كهرباء أو ضوء سيارة . . حتى إذا وصلت دخلت الغرفة القذرة المختنقة برائحة دخان (النوع الخامس) ، وتستلقي إلى جوار أبيها وتنام نوماً بلا أحلام . . تاركة الغابة الخضراء مظلمة بدون أية رؤىً ضاحكة الأسنان .

– بعد بكره السحب . . خمسين ألف ليرا .

وهمس صوت قريب مني :

– شايفين هالبنت ؟تمام . .آ ؟ لها مستقبل .

وانفلتت ضحكة بليدة قاسية مع ضرب الأحجار على النرد .

– سننتظرها سيدي . . ممكن تفلت ؟

– شايف هالعيون ؟

– اخجل يازلمة . . العمى . . طفلة .

– لنشوف بكره إنسانيتك لما تكبر .

أشعلتُ سيجارة أخرى . . تراءت لي الشفتان الغليظتان المبتسمتان عن الأسنان الصفر المسودّة وهما ترشفان الشاي .

– أتعرف ياسيد سليم ؟ قال سبع دول عربية قال . والله لايرَجِعُنا الفلمنك . . مفتكر الأميركان والانكليز قاعدين عم يطقطقوا أصابيعهم ؟ أساساً إذا رجعت ماذا أشتغل ؟كنتُ حمّالاً في صفد . . والآن لم يبق في الذراع قوة . . . لاأستطيع أن أعولُ نفسي . . لانفع يُرجى مني بعد الآن . . .

وأقول له مشجعاً

– ولكن كيف كنت تعول بناتك وامرأتك ووالدك ؟

– اتركها لله يازلمة . . كانت أيام عظيمة . . ابك على الشباب بس . . كنت أسحب يومياً سبعين قرش فلسطيني . . ليرة . . وفي بعض الأيام الطيبة ليرة ونصف . . أحمِل . . أساعد الدهانين . أعمل بناء . . أبيع خضرة . . أشوي كستناء . . أسرق الجنود الانكليز . . سبَّعت الكارات . . ميت ألف شغلة . . كنت أشتغل بحماسة عظيمة ، وكانت بناتي في المدارس ، ولما ولدت أم ابراهيم الصغير ابراهيم ، كنت جامعاً عشر ليرات صرفتها كلها في الفرح واستدنت فوقها . . أما الآن فلمن أشتغل ؟ انكسر ظهري من وقت وقوعي من على السلم . . صرت لاأنفع لسوى بعض الأعمال . شوفة عينك!!

- توكل بالله يارجل . . أنت لاتزال قوياً . . و . .

فيشير إلي بيده مقاطعاً :

- سيدي بلاش ضحك عاللحى . . ولولا هالبنية . . فاطمة . . حلوتي فاطمة هل تعرفها ؟ لرميت حالي من أعلى بلكون وخلصت . . فيه شاي ؟

- فيه!

وتتلمظ الشفتان وتستروح الخياشيم المتسعة رائحة التبغ الغالي .

- طلعنا طلعة . . الله لايريك . . قالوا اليهود هجموا!؟ كل من يستطيع الرحيل فليرحل . . وحصلت طوشة وهوشة ، كيف ؟ الصبح كان الجيش الأردني . . ماذا صار . . لك شو الخبر ؟ وتذكرنا ماقاله النازحون إلينا عن جيش العراق وقيادته . . الانكليز ياسيدي الانكليز . . وحملنا ياسيدي ماخف وغلا . . تفوه عالخيانة وميت تفو . . أتعرف (صفد) ؟

- لأ . . ذهبت إلى يافا والقدس بس .

- صفد ياسيدي عالية في السما . . فوق هضبة مثل الحصن ، لو تركونا ندافع عن أنفسنا ، لظللنا نقاتل خمس سنين ، وحياتك مايدخل فيها كلب صهيوني . . تفوه عالخيانة! اي بلا طول سيره عليك . . طلعنا طلعة لاتسر صديق . في عز الليل والبرد والمطر ، ولم يكن هناك طريق إلا طريق وادي الطواحين . . وادي الطواحين الذي لانستطيع النزول منه بالنهار ، فكيف بالليل ونحن حاملين المتاع ؟ وترقص أرجلنا من الذعر ونتزحلق على المنحدرات . وقع من وقع إلى أسفل الوادي حيث مزقته الصخور . مشينا . . أم ابراهيم تحمل ابننا الرضيع ابراهيم ، وأنا أحمل فاطمة . . حلوتي فاطمة ماغيرها . . كان عمرها سنتين ونصف بس . . وكانت ابنتاي تتبعانا باكيات ، وفجأة صرخت أم ابراهيم صرخة أماتتني من الرعب ، وجحظت عيناها . . نعم رأيت وجهها برغم الظلام على ضوء فانوس شتوي يحمله جارنا أبو عبدو ، ثم رمت ماتحمله على الأرض بقوة ، ولم أسمع صوت الرضيع يبكي ، واندفعت راجعة وهي تركض وتصرخ كالمجانين وبعد لحظة ، وبعد لحظة ياسيدي تدحرجت من أعلى الجبل إلى أسفل الوادي . فيه شاي ؟

- فيه .

ويمسح جبينه في عصبية ويسكت قليلاً ويأخذ ينقر بأصابعه بخفة على المقعد .

- لاأزال أتذكرها إلى الآن ، كتلة سودة داكنة تثير في انحدارها الأحجار والصخور . . والصرخات الهلعة تنبعث من على يميني وشمالي . . كان اللاجئون يفسحون الطريق أمامها حتى لاتجرفهم . . وأنزلت فاطمة وقعدت على الأرض أبكي وأغطي عيني . . في لحظة واحدة أفقد بيتي وبلدتي وزوجتي . . و . . التفت جزعاً

نحو ابراهيم الذي ألقته من يدها . . وركضت إليه . . وأخذت أحملق في الظلام لأتعرف عليه . . أتعرف شو كان هذا الشيء الملقى على الأرض ياسيد سليم ؟ كان صرة ثياب ظنتها المسكينة أن ابراهيم في لهوجتها وذعرها . . ابننا الحبيب ابراهيم . .

* * *

-خمسين ألف ليرا بعد بكرا السحب . .

كانت فاطمة لما تبع الأربع الورقات الباقية بعد ، ولاتزال تتنقل في المقهى متعبة كنيبة تقف أمام الطاولات طويلاً وترد على الممازحات بتقطيبة ألِفَتْها . وتصورتَها باكية بين يدي أبيها وهو يتلمس طريقه في الوادي الرهيب ، وأختيها من ورائه تتمسكان به ، وتحاولان أن تطردا الظلمة المسيطرة وترفعا أرجلهما من الوحل ، وبدت لي من بعيد تحمل في أعماقها سراً مجهولاً لمأساة أليمة ، أسئلة حائرة عن حياة لاتعرف لماذا تعيش فيها وتحتمل ثمنها ، ثمن المشي طول النهار وتنفس الدخان الرديء . . .

وتدانت أربعة رؤوس على الطاولة المجاورة ، وقال أحد الرؤوس بصوت أبح :

-شايفين بياعة اليانصيب الحلوة هي ؟

والتفت الآخرون صوب فاطمة متفحصين .

- هل تعرفون أختيها ؟

وعلا الوجوه الاهتمام والترقب .

- تشتغلان عند لوريس . . جميلتان مثل النُفَجة ولكن غاليتان .

- هي ؟ الصغيرة ؟

- إي سيدي .

- يا ما في بالدنيا

- وماذا تفكر . . سنتين ثلاثة وبتشوف هي كمان!!

- ياحرام . .

- لكن هي ادهش . تطلع إليها مليح . . مفتخرة ، تُبلع بلعاً .

- ياحرام على هالجمال ، ياضيعانه!!

- أختينها مابيخرجو أبداً ، بدهم يروحوا متل مادريت إلى حلب في الأسبوع القادم . .

- ولكن هالمسكينة تعرفهما ؟

- ماأظن .

- اسألها

- خطية . . حرام . . تقوم توصل الخبر لأهلها . . ماحدا بيعرف شو بيصير!!!

وبدت لي طلعة أبي ابراهيم الهرمة ونظرته التي انطفأ فيها بريق قديم رائع ، وتذكرت خيبة الأمل والحيرة اللتين استقبل بهما اختفاء سعاد ، لقد كانت هي الأخرى تبيع من قبل أوراق اليانصيب ، وتسمع نفس التعليقات . . ويوماً ما مزقت الأوراق التي في يديها واختفت مخلفة وراءها أعيناً دامعة أطبق جفونها العار .

- ماذا أستطيع أن أقدم لها ياسيد سليم ؟ نحن جيران ونعرف بعضنا ، هل أعرف الآن أي مكان في الأرض تأوي إليه ؟ قد تكون هربت مع رجل وتزوجته (وتنحنح ورفع رأسه بصعوبة من يلم بقايا ثقته بنفسه وكرامته) لقد ربيتها جيداً ، مالي خايف عليها . . قد تقول نام على الضيم ، قد تقول أن زوجها خالف الأصول بعدم استشارتي ، قد تقول يجب أن أقلب الدنيا بحثاً عنها . . ولكن لنفرض أني أرجعتها . هل أقتلها ؟ هل أذبحها لكونها أرادت أن تأكل لأول مرة حتى الشبع ؟ هل تبقى في البيت قعيدة تنظر إليّ في الصبح والضهر والمسا ؟ أنا أفهم تماماً ، ماأنا إلا رجل أعرج لانفع يرجى منه ، يأكل من كد بناته .

وعندما اختفت خديجة كاد يدركه الجنون . . استدان مني عشر ليرات قبل أن يدفع فاطمة إلى العمل ، وأخذ يقضي أكثر الأمسيات عندي يتناول الشاي ويدخن السجائر ، وكان يخجل دائماً أن يأتي معه بفاطمة .

- شو العمل ؟ لعنة الله على خلفة البنات . . عار وذل وبهدلة ، لو كان لي ولد يشيلني ، لو ظل ابراهيم إلى الآن . .

ويصمت دامع العينين ويحدق في بركة الماء .

- مابقي لي إلا فاطمة . . حلوتي فاطمة . . إنها سند شيبتي .

- ستظل لك إنها ابنة عاقلة .

- القدر بيد الله ياسيد سليم ، من يدري ؟ لقد أردت أن يخطبها من الآن أحد اللاجئين ، مارضي أحد . . معلومك . . الأنذال يقولون أشياء كثيرة عن بناتي . . ولكنني واثق منهم . . لن أصدق مايقولون لو رأيتهم بعيني . . أنا متأكد أنهم متزوجين . لقد ربيتهم مليح .

ويصمت قليلاً ويتنهد :

- سأجن حتماً إذا راحت . وسأضرب بطني بسكين حتى أرى أمعاني بعيني . . تصور ياسيد سليم فاطمة . . حلوتي فاطمة .

أخذت أتابعها وهي تدور بين الزبائن . . سنتان ثانيتان ، يارب ، سنتان وينهد

الشديان في صدرها الأمسح ، ويلتف الردفان في استعلاء ، والعينان الخضراوان . . الغابة الصباحية ، ستعرفان زقزقة العصافير ، ومناقير الشواهين ، وسيختفي هذا الوجه من المقهى كما اختفت اختان له من قبل ، وهذا الجسد الصغير ستأخذه أذرع قوية قاسية تدفع ثمن كل المباهج التي تحرم منها الآن . . السينما . . الحلويات التي تقف طويلاً أمامها كل يوم . . الثياب البراقة . . السيارات الفخمة . .

وسيرنّ معصماها بالذهب ، ويبرق جيدها باللآلىء . . وثغرها الطفل ستشققه الحمرة الداعرة . . كل شيء سيروق لها ستفعله ، ولكن البحيرة المسحورة سيمتصها التراب الأبرش ، والنظرة الظليلة في أعماق عينيها الرانعتين ، سيطفئها حريق الغابة ذات الأوراق الندية .

عندما عدت في منتصف الليل إلى البيت ، كنت أتطلع إلى القدمين الصغيرتين وهما تحاولان أن تسايرا خطواتي . . ونظرت إلى آخر الزقاق المظلم متوقعاً أن أرى أبا ابراهيم سهران قلقاً لتأخر ابنته ، ولكن غرفته كانت سوداء كالليل المحيط بها ، ومن خلال النافذة المفتوحة كان يتعالى شخيره الرتيب . استدرت إليها قائلاً :

- لاتتأخري يافاطمة بعد الآن . . آ ؟

- ولكن بدي ابيع . .

- دعي قصة البيع والشراء هذه ، أبوك يقلق وأنت تخافين بالليل . . ارجعي دوماً الساعة تسعة . .

فهزت رأسها ، وأدركت أنها لن تفعل شيئاً مما أقول :

- إذا تأخرت في المدينة . . ابحثي عني في قهوة (الهافانا) وأنا أوصلك . .

-يكتر خيرك

- تصبحي على خير ياحبيبتي ، سلمي كثيراً على الوالد .

ودخلت البيت منسابة بخفة ، وانتظرت لحظات علي اسمع رد فعل التأخر على أبي ابراهيم ولكني لم أسمع سوى همهمة مبهمة ، ثم ساد السكون ، لقد نام الاثنان .

لتنم هانئاً ياصديقي . . تمتع بضم الجسد الصغير إليك وشم الشعر المجعد . . لم يبق أمامك طويل وقت تضيعه بالسهر والقلق ، وشرب الشاي والدخان ، من يدري ماذا سوف يتغير في عالمك بعد سنتين ؟ ترى هل سأجد الغرفة مطفأة عندما أعود كل يوم أم سأراك واقفاً تنهب الدرب بعينيك الكئيبتين حتى يبتسم عنها ؟ وهل ستسبقك إلى العمل في الصباح كالعادة ، أم أنك ستقف ، ويدك على قلبكل ، تودع الصدر الناهد والقوام الملتف بإشفاق قائلاً بصوتك الخشن امهموس المبلل بالعطف والعبادة :

هل جاء دورك أنت أيضاً . . . ياحلوتي ؟ . .

صولد

إنها الحياة يشعر معها المرء أن كل نفس من أنفاسه
رمية من نرد مغشوشة ضده .
(برناردشو)

إنهم الآن ينتظرونني في المقهى . . لتذهب ساعات النوم اللعينة هذه إلى الجحيم . . النوم!! النوم!! يالهذا الموت اللذيذ الذي يطاردني كل يوم . سبعة سباتي ، آس كُبا . . شو بتشربوا ياشباب ؟ وصوت مائع يغرق المقهى المتوتر في ضجيج لامعنى له ، وشفاه تصيح : سكر الراديو . . العمى .

أصابعي ترتجف ، لوحدثَتْ المعجزة ، وجاءتني الخمسة الديناري حفراً بين هذه الورقات الأربع ، إذن لنزل قلبي إلى موضعه ، ولأسرعت إلى اللوح لأسجل ربحي ولأمسحَ الآخرين ، أمسحهم مسحاً وأستمتع بمرأى وجوههم الصفراء وهم يتمتمون بحقد :

– حظ فظيع . . اذهب إلى الروليت أشرف لك!!

الخمسة الديناري . . أين أنت أيتها الشهباء المدمّاة الحلوة ؟ . . هاأنا ذا أسحب أيضاً . . وأيضاً . . وأيضاً . . أين أنت ؟ . . ياأجمل من خد متورد لحسناء . . الخمسة الديناري ياأروع من مؤخرة فتاة يف الرابعة عشرة . اهرب!! اهرب . أمامك متسع من الوقت قبل أن تنفرج شفتان لترفع الرهان : فيشة . . دق قلبي . . اثنتان . . ثلاث . . تك . . تك . . تك . . أربع . . ست . . عشر .بم بم بم ، اليدان ترتجفان ، وأنت تنظر إلى الشفتين وتكاد تتوسل : على مهلك ، ورقنا ميت ، يأتي كله مزدوجاً دون أن تركب ورقة على أخرى ، صدق المثل : مثل ورق الشدّة ، كل ورقة شكل . . دقيقة

ياشباب سأذهب لأبصق على حظي الأسود قه قه قه . . سأذهب لأبول على كلب جوبر ، ولكن الشفتين تنفرجان :

– صولد!!

وتصفو الوجوه . . شوبتشربوا ياشباب ؟ عندنا قهوة . . شاي . . زهورات . . كازوز . . ليمون . . تمر هندي . . كسما . . نومي . . والصولد معلق فوق الرأس كسيف ديموقليس ، والعينان اللتان يفصلهما عن الشفتن المرتجفتين عشرة سنتيمترات يحتلها أنف قبيح ، تتأملان الثلاثة بتشف وانتصار ، وهم مكبون على أوراقهم يحسبون ويطرحون ويجمعون . .

– ليش الصولد . . والله مثلي مثلك تنقصني ورقة .

ولكن العينين تظلان ثابتتين وينفرج تحتهما الفحيح :

– قلت صولد وبس اللي بدو يجي . . يشرِّف .

العمى في سما هذه الضجة ، والصوت المائع لايزال يدوي :

انساك ازاي انساك

وأنا قلبي معاك

ياهاجرني ارحم شوية

وترتخي الأيدي بخزي . . لا . . اربح . . اربح . . صحتين . .

حياة كلاب ، حياة لصوص . كل يوم أنظر إلى البارودة الستة مليمتر المعلقة فوق رأسي . . طلقة واحدة على الزناد بإبهام اليد اليمنى على الصدغ الأيسر وتنتهي المشكلة . الموت لذيذ كالنوم ، ولكن لنفرض أن الرصاصة الصغيرة لم تقتل ، لنفرض أنها دخلت الأعصاب الشوكية أو مالاأعرف ، وأعدمتك البصر ونجوت لتحمل عكازاً فوق حملك الحياة ؟ هل باستطاعة الانسان أن يضرب طلقتين مرة واحدة ؟ هل يستطيع تحمل الضربة الأولى ثم يدير الرأس على الصدغ الأيمن والبارودة على الإبهام الأيسر ليجرب حركة أخرى ؟

ياأستاذ . . وجهك أصفر كالأموات . . قلت لنا البارحة أن اسم إنَّ منصوب . . ويتهالك الأستاذ على المنبر . . لو أن الخمسة الديناري أتت حفراً بين السيري ؟ إذن لمسحتهم مسحاً . . أنت ياولد . . العب! ؟ جاء دورك . . عفواً أعني اكتب الدرس خمس مرات . . نعم أنت في آخر الصف . . العب . . أعني اكتب جيداً . ووجه أبي الغاضب وعينا أختي المخضلتان بالاشفاق تدوران وتكبران وتكبران وتكبران . . حَيَّ على الصلاة . حيَّ على الفلاح . والخمسة الديناري تكبر وتكبر وتكبر ويصبح كل رقم فيها كقلعة حلب . . ويدان تهزانني لأستفيق من النوم ، والعرق يغرق بدني إغراقاً .

ياله من كابوس روتيني . . أحلام مُتَمَلِّك ، ونظرتُ إلى وجه أختي الذي لايزال به أثر من نوم .

– الساعة ثمانية إلا ربع . . تأخرتَ عن المدرسة .

قمتُ بتكاسل وأنا أجري حساباً سريعاً كانت نتيجته أنني لم أنم سوى ساعتين ونصف . نظرت إلى المرآة ، من يصدق أن هذا الوجه وجهُ إنسان ؟ وجه أعبس كنود ، لحيته لم تحلق منذ أيام (لضيق الوقت) ، وتنهدت أختي ونظرت إلى يديها المسلوختين من الغسيل ، ولكنها لم تتكلم : كانت الثورة على لساني ويدي ووجهي المظلم كلّه قالت :

– هيأت لك لقمتين .

– أجبتُ بجفاء :

– مافي وقت!!

وأشعلت سيجارة انساب دخانها في حلقي وكاد يتوقف .

استقبلت نسيم الصباح خارجاً بسرعة ، الساعة الثامنة إلا خمس دقائق ، والمدير لايرحم ، والطلاب بدأوا يلاحظون الغرابة في وجهي وتصرفاتي وأقوالي .

كانت البنيات الصغيرات ذاهبات إلى مدارسهن . شرائطهن البيض المعقودات خلف شعورهن الناعمة كفراشات مضطربة ، وملابسهن السود وكتبهن التي يتأبطنها ويضعنها فوق القلب ، تذكرني بعالم ذي ثلج أبيض . . ودمعت عيناي . . لاشك أن قرصة البرد هي السبب ، وليس هناك عامل آخر .

وعند باب المدرسة ، في الساعة الثامنة تماماً ، رأيت المدير . كانت نظرته جارحة كالصقر ، نظر إلى لحيتي الرهيبة السوداء ، وإلى هندامي ، واحمرار عيني ، واصفرار وجهي نظرة متفحص ، ثم مُزَوّرً ، وكلف نفسه بأن رد بتمتمة ما من بين شفتيه على تحيتي الوجلة . وفي الصف كانت تنتظرني منة عين مدققة ، تعودت على صوتي الخشن الذي أحرقه الدخان ، وخرشه السهر ، وعلى عينيَّ الدامعتين . . عيني سكير ومقامر ، وعلى الغضب السريع والغلط والتناقض . . ولكنهم مع ذلك كانوا يحبونني من أعماقهم ، ماذا أقدم لكم ياأصدقائي الصغار ، قلبي ؟ ياله من بخل أن يقدم الانسان شيئاً لايفخر به ، كيف أقدم لكم قلب عبد ، عبد لأوراق تحملها الأيدي المرتجفة بتعبد . أنا أشعر الآن أنه ليس هناك في هذا الجسم الذي قدر علي أن أتحرك به شيء أصيل : الأيدي لحمل الورق ، والقلب للانتظار ، انتظار أول غبش يضرب

صفحة السماء لأذهب إلى المقهى ، والعقل للتفكير الممض في طريقه لاستجلاب المال لألعب وأخسر ، لم تعد الخسارة والربح الشيءَ الأساسي الذي يثير اهتمامي . . المهم أن أمسك الورق . . أو الامسه ، وأن ترتجفف يدي بحمله . . أن ألعنه . . أن أعبدهط

لم يكن ضيقي بالدروس ليقلّ بحال عن ضيق الكلاب ، كنا جميعاً ننتظر الجرس كما ينتظر السجناء فسحة المساء ليخرجوا إلى الهواء الطلق ويتنفسوا شيئاً من هواء الانسان الحر .

– ولك ياحسن بدون كلام .

وهويت بيدي على الخد الضامر الشاحب وحدقت فيَ أذكى عينين في الصف مدهوشتين مؤنبتين ، وقال حسن بهدوء :

– لست أنا الذي أتكلم . .

وبدا أنه يبذل جهداً كي لايبكي .

– لقد كنت مريضاً . . وجئت خاصة .

وسكت وأكمل آخر :

– لقد جاء خاصة ليحضر درسك . .

ودق الجرس المنقذ وخرجت كالمخمور إلى البيت . . لقد جئت خاصة . . لقد جئت خاصة ، وبعد خمس دقائق فقط كنت أنام بدون طعام . . رقاد الظهر هو الوحيد الذي يريحني ، إذ يكون التعب قد بلغ بي حداً يمنع عني الأحلام . . أنام كالخشبة ثلاث ساعات ، وعندما يأتي المساء أحس كأن يد أسحرية تهزني من النوم ، لقد حان الوقت ، واستفاق إله الورق الخفاشي وجاءت ساعة القدر التي لامفر منها .

لاأعلم لماذا خطر لي في ذلك اليوم أن أحلق ذقني وأن أرتب شعري . وخرجت من البيت وأنا أكثر ثقة من أي وقت مضى ، بأي شيء ؟ هذا مالم أفكر فيه ومالاأدري معناه .

وعند باب القهوة أصابتني الحمى مرة واحدة ، أخذت أرتجف وخفق قلبي فشعرت به كعجوز مشرف . وملأت أنفي الرائحة المألوفة التي هي مزيج من رائحة الخمر والقهوة وأنفاس التنباك ودخان السجائر والناس المنتنين . . وسرت كأنني منوّم فدخلت إلى طاولتنا المفضلة ، ورأيت اثنين من الشلة ينتظران وعيونهما معلقتان بالباب دون أن يحركا شفاههما بكلمة :

– مرحبا .

– مرحبا .

كم أكره وجوههم . لقد تعرفت فيها على وجهي الصباحي
كان الورق على الطاولة يأكل حبة قلوبنا .
وضربت كفي صارخاً :
- أبو أحمد . . أوقية لحم شقف بدون دهن ، وصحن حمص وبطحة عرق شلهوب وأكثِر من السرفيس .
-أمرك .

الوقت ثمين . . الورق على الطاولة سامت كأبي الهول ، وصاحبنا الرابع لم يأت بد ، وتململنا ، ونظر بعضنا إلى بعض . ربع ساعة ، نصف ساعة ، ووصل اضطرابنا إلى نهايته ، انتبهت أكثر من أي وقت مضى إلى الضجيج . كان بجانبنا رجل يحلف بالطلاق أنه لم يسرق الجوكر ، وآخرون يعربدون ويرافقون الراديو وصوته المتميع ، وهناك في الزواية جلس شباب يتحدثون في السياسة . . السياسة ؟ هه . . ياألها من عالم قديم ، تفصلني عنه عصور جيولوجية سحيقة .

وفي غرف جانبية كان الصمت يسترعي الانتباه!! إن آخرتنا هناك!! في هذه الغرف الجانبية ، حيث لايخرج منها المقامرون الكبار على الاطلاق ، وحيث تبدأ الفيشة بخمس ليرات فلا يخرج الوا حد إلا رابحاً أو خاسراً مئات الليرات . . وارتجفت . . أكان ذلك ذعراً من الهاوية ؟ (لقد جئت خاصة لأحضر درسك) شربت الكأس حتى نهايته ، ونظرت إلى الورق ، وبدأ وجدي يصل إلى قمته ، أين الرابع ؟ لابد من رابع ، كنت أتمنى أن يأتي أي رجل ، مضى الزمن الذي كنت أنتقي فيه من يقامر معي . أصبح كل من يمسك الورق مصفراً أو مرتجفاً ، صالحاً لأن يجلس معنا ولو كان غشاشاً أو ساقطاً أو سكيراً أو ذا سمعة سيئة معروفة ، المهم أن نلعب ونلعب ونلعب حتى ننطفىء أو ينطفىء العالم .
- بتسمحوا ياشباب .
-اتفضل .

لعلي الوحيد الذي اهتم بالوجه . . لقد كان قهرمانياً تجاوز الستين ، ورمقنا خادم القهوة ، ورفع حاجبيه استياء واستنكاراً كأنه يقول : ولو . . إلى هنا وصلنا ؟ ولكننا لم نبال ، لقد جاء الرابع . . وانه ليستحق الشكر على هذا التفضل .

وكالعادة كان حظي سيئاً ، وكنت أزجي اللعنات للورق والحظ والدنيا ، وأتفوه بكلمات أبعد ماتكون عن معلم تلامذة ، واستمرت خسارتي . .

والغريب صامت عابس يربح ويربح بهدوء ، وتمخط ثم بصق على الأرض من بين أسنانه الدرداء .

وقمت لأغسل يدي . . كانت أنفاسي تتقطع ، ونظرت إلى وجهي في المرآة ، كان محتقناً بائساً كوجه شهيد . وقفزت إلى ذهني كلمات عجوز شحاذة عند باب المقهى ، قالت لي ذات يوم وأنا خارج في الصباح من المقهى :

- ياأسفا على شبابك .

شبابي . . حياتي . . أمي . . أبي . . أختي . . التلاميذ . . (لقد جئت خاصة لأحضر درسك) . الوطن . . العالم . . كل هذه الأشياء لم يعد لها في ذهني أي معنى أو دلالة . . يجب أن أستمر في الورق والسكر حتى يصبح لحياتي معنى . . ركضت إلى الحديقة وحيداً أترنح وأخذت أبكي بشقاء عظيم .

وعدت محطماً إلى المذبح . . وجلست ، وأمسكت بالورق ، وجاءني الآس منذ أول توزيع ، ثم الملك ، ثم الملكة ، ثم الولد ، ثم العشرة : ورق في غاية القوة ، لاأدري لماذا أفرح . . وأخذت أفكر . . وما الفرق بين هذا الورق والورق السيء الذي كان يأتيني ؟ لاشيء . . واستمر التوزيع واستمر صعود الورق .

أخذت أزيد بأرقام كبيرة دون أية حماسة ، وانسحب رفيقاي وبقي الغريب بوجهه العابس وببصقاته المتكررة يلحقني وفجأة قال :

-صولد .

وقف الورق في يدي ، وعلت وجهَيْ رفيقيَّ إمارات الدهشة بعد أن نظرا إلى ورقي . . لايمكن أن يتغلب على هذا الورق إلا أعلى ورق في السلم ، وهو مالا يجتمع عند اللاعب إلا مرة كل سنة .

قلت بحقد واحتقار :

- ماذا تحمل ؟ اهرب أحسن لك . . عندي أعلى ورق يمكن تصوره .

ولكنه أجاب :

- صولد .

في مثل هذه الحالات ، لابد للاعب ، إذا كان يحترم نفسه من اللحاق ولو كان متأكداً من الخسارة مائة في المائة ، وإلا فما أدري ماذا يسمونه . . وكان هذا الدور يدعى في عالم القمار (حكم الورق) وإذا لم ينزل اللاعب عند هذا الحكم الشيطاني سيخسر سمعته . . نظرت إلى الوجه الغريب

أمـامي ، وإلى الورق الرائع بين يدي وهو ينظر إلي برهبـة وحـزم . . الحق ياجبان . . الحق ياعبد . . والضجة تكبر ووجهي يحتقن أكثر فأكثر . (يا اسفا على شبابك) . (لقد كنت مريضاً وجئت خاصة لأجلك) . . لقد أعطيتك هذه الأوراق لتلحق . . الحق ياصفر ، وأنزلت يدي وقلت بهدوء :

– باس . . انسحب .

انفجرت دهشة محتقرة في عيون ست ، وساد صمت مربك قطعه الغريب هذه المرة ببصقة منكرة مشمئزة ، وأدار صديقاي وجهيهما لكي لاتلتقي عيوننا ، وتهالكت على المقعد ، وأنا أشعر بحرية لاحدود لها . . وانطفأ العالم حولي وخفتت الضجة ثم قمت

– بخاطركم .

ولم يرد أحد .

وخرجت من باب المقهى وأنا أحس أنني خفيف كطيف ، كان العالم ضحكة كبيرة سوداء وتمثلت لي ألف صورة . . فراشات البنيات عند الصباح ، وجوه الطلبة ، اعتذر لك من قلبي ياحسن ، أبي أمي أختي . . كانوا كلهم يبتسمون . حتى المدير كان يبتسم . وعند الباب رأيت الشحاذة العجوز . نظرت إليها ثم أخرجت كل مابقي معي وأعطيتها إياه .

قالت من أعماقها :

– روح الله يخلّي شبابك .

فانحنيت حتى الأرض لأول انسان حر ، رأيته في عالمي الجديد!!

مشروع إنسان

كانت تلك ساعة جدي ، وعندما أهداني إياها أبي قال : دالتن . . إني أعطيك ضريح الآمال والرغبات كلها ، إني أعطيك إياها لالكي تذكر الزمن ، بل لكي تنساه بين أونة وأخرى .

(فولكنر) «الصخب والعنف»

هناك أكثر من الضحكات ، والتفكير العميق المجدي في النادر والجلوس في المقهى خمس ساعات من أربع عشرة ، والأكل والشرب والتنفس والنوم . . هناك أكثر من الأيدي والأصابع والعيون والقامات والألبسة . . وعندما ننظر إلى المرآة لنصفف شعرنا أو نحلق ذقوننا . . قد لاننظر بكثير من الاستغراب إلى من يواجهنا سواء أكان جميلاً أم قبيحاً ، ومن الواضح أننا ، بحكم العادة ، لانشعر بكثير من الصداقة له من جهة أو بكثير من الكره له من جهة أخرى . ولكننا نستشف من وراء خياله الذي قد يؤلمنا أنه يشبهنا ، شيئاً غير ما هو كائن فيه . . شيئاً يبعث في نفوسنا الفخر الذي يسوقنا إلى الرهق والتعب والخمول في أكثر االأحيان ، بل قد يديننا ويستثير فينا شعوراً ضمنياً بمقاتلة العالم .

يحلو لي أنا شخصياً - كموجود يمشي على رجلين ويهمه حتى الموت أكل الطعام الجيد والاستمتاع بالمباهج - أن أفكر تفكيراً مقلقاً في هويتي . . ولأحدد الأمر بالقول انني أعتبر نفسي شخصاً معقولاً في الحياة تجاه كثيرين أعرفهم ويعرفهم غيري في هذا العالم الواسع العريض . . وقد أفكر في هذه الهوية في أكثر المواقف مدعاة إلى عدم التفكير . . أفكر وأنا أدرّس الطلاب ، أو وأنا أنظر إلى شخص أصلع يحدثني عن مأساة حياته . . أو وأنا أقرأ وآكل أو ألعب الورق . . ولأقل أن هذا التفكير كان دوماً ينتهي بي إلى

أنني شخص خائب! وأنا مولع جداً بالاصرارعلى هذه الكلمة . . وخيبتي كما قد ينتهي بي إليه هذا التفكير البالغ العمق ، ليست منبعثة من أعماقي ، وإنما هي من العالم الذي حولي . . يقنعني بهذه الخيبة شخص يمشي مع فتاة جميلة . . أو طالب يترأس المظاهرة التي قد يكون في نهايتها الرصاص والدم والموت . . أو فرّان يدير قرص العجين بين يديه في مهارة فاتنة ، أو أي رجل يتحدث في حماسة لاهبة عن شيء يعتقده .

يخيل لي في بعض الأحيان أن العالم مضحك . . مضحك لدرجة الاغماء . . وأنه مليء بالقامات التي تمشي على رجلين . مليء بالأيدي والأرجل والولادة والعطور وعقد الرقبة ، والأفواه التي تأكل بشكل ينبو عن الذوق . مليء بكل ماهو حيواني أصيل عريق فظ . وأن كل واحد فه ينظر إلى الآخر بغرابة من يرى منظراً غير مألوف يراه لأول مرة ، ومن جهة أخرى يحس بأنه هو ، متعدداً متكرراً بشكل يدعو إلى الملل .

أنا قامة مثقفة ، حشت رأسها خلال عشرين سنة بمختلف المعارف العامة عن الشعر والجنس والبلاد والطقس وفن معاملة الناس . . وفي كل مرة أحاول الجمع بين مواد هذه السلسلة الملآى التي أتعب ممن حملها رغم شعوري الضمني بخفتها وضحالتها . . فلا أعود من ذلك إلا بإيمان مرضٍ : وهو أنني شخص خائب مضاع ، عاش في غير زمنه ، وعندما يفهمه من حوله ، تبدأ حياته من جديد تكتسب طابعاً كنت أنا نفسي ألوب عليه ولو أنني شاعر حتماً بوجوده!!

في الأيام الصاحية . . أخرج مستمتعاً أتنزه . . . بورجوازي صغير يضع يده في جيب بنطلونه ، ويتأمل العالم في شفافية قد تبلغ مرتبة حسن النية . . وأنا في هذه الأيام أكون على أتم الانسجام مع نفسي . . وأروح ألتقط الكلمة تتناثر إلى من فم عابر ، أو الحركة تند عن شخص يقف على شرفة قصر . لاشك أن العالم يبدو لي في بعض الأحيان عصياً على الفهم . . . فقد أشعر أنه حجر ، أو موسيقى ، أو أسنان نخرة بارزة . ولكن الأيام هذه على وجه العموم تنتهي بعودتي إلى كآبتي . . إلى حصني الذي أتقي فيه المفاجآت . . إنني أشعر دوماً بأن شيئاً خفياً ، عتيقاً مارداً ، بِكراً . . هو سر مايتحرك به الناس والأشياء من حولي . . وإنني مشدود إلى هذا الشيء شداً يرهقني عدم ظهور وجهه متميزاً بملامحه الخاصة . . ورغم ذلك ، أؤمن بأن اليوم ، الذي أكتشف فيه مايكمن وراء هذا التيه الروتيني من الحركات التي تنظم البشر والحياة والطبيعة معاً ، هو يوم بداية حياتي كشخص لايتميز فقط

بأن له رأساً وعقلاً ورجلين يمشي عليهما مرفوع القامة ؛ بل يتميز حقاً بأنه إنسان .

أترى قد وصل ذلك العامل الذي رأيته منذ شهر إلى السر ؟ لاأزال أذكر نظرته المحتقِرة ، وعودَه الناحل ، وحركاته العصبية . . قد أكون جباناً . . . ولكن أليس من الضياع الحقيقي على هذا العالم موتُ شخصٍ ذكي مثقف باحث مثلي ؟ بينما يوجد منه هو كثيرون . .

يجب أن أقرر بصراحة أنني أحببْتُه . . . وأنني إذا أحببت شيئاً احترمته . . والاحترام ينطوي عادة على شيء من التفوق . . هل أستطيع أن أقرَّ الآن أن فيه مايتفوق به علي ؟ . لاأزال منذ شهر أفكر فيه جدياً ، ويكاد يسلِمَني هذا التفكير في بعض الأحيان إلى احتقار نفسي . . والبارحة استسلمت لرجفة حقيقية عندما نفذت عيناه صدفة إلى أعماق كياني في لقاء عابر في الطريق . . . لماذا يعذبني ؟ لماذا يمارس سلطته علي ؟ وهل كل من يعاني شيئاً أكثر من الآخرين يؤثر فيهم على هذا الشكل النابي عن اللياقة ؟

لم تعطني الكتب أكثر مما أعطانيه هذا العامل في شهر واحد! لقد زاد شعوري بأن الناس ينطوون في أعماقهم على سيد عظيم هم جميعاً ينتظرون ظهوره ؛ وهم في بعض الأحيان قانطون ، من كل ماهو قاس وصفيق وآلي في زحمة حياتهم . ويحسون جميعاً بحاجة إلى تغيير الهواء الخانق ، وبالبكاء ، وشرب الخمر ، وقضاء لياليهم في البؤر الدنسة ، وبالعراك ، وفي تحطيم الأشياء الجميلة نفسها ، حتى لقد رأيت جاري يضرب زوجته لمجرد أنها ضحكت مرة من كل قلبها ثم نطح الحائط برأسه عقاباً لنفسه . . ولم تفعل هي سوى أن ضحكت مرة أخرى ، فاضطر إلي أن يضحك ، وإلى أن يأخذها إلى السينما وأن يولم لها وليمة . . ثم يعود آخر الليل منهكاً حزيناً مسترداً كآبته القديمة .

كان العامل يقود مظاهرة وهو منتصب أمامها كإله أسطوري . الآن تذكرت . . كان المتظاهرون جميعاً يبدون لي غريبين بل مخيفين . . ذلك لأنني شعرت لأول مرة بأنني ضئيل ، ولم تنفع كل الأهرامات التي كونتها عن ثقتي بنفسي لإزاحة هذا الشعور . . وكانت المظاهرة بكل بساطة تمشي إلى الموت!! وحانت منه التفاتة نحوي . . آه من عينيه . . كان يعرفني معرفة عابرة من زمن طويل . وأشار بيديه إليَ لأنضمَ إلى المظاهرة . . وتعالت الدماء إلى وجهي ، وأخذت أقلب يدي وأقلم أظافري ببلاهة! ولم يزد بل أدار وجهه ومضى . وخفتت الأصوات من بعيد ، ووجدتُني وحيداً مع نفسي ، كم

كنت بحاجة إلى مرآة في تلك اللحظة! كل الأعذار التي ابتدرت إلى نفسي قد أقنعتني بسرعة ، ولكنني استغربت كثرتها ، . لماذا أموت ؟ كم يخسر العالم بفقد رجل مثلي ؟ ولكن الذي كان يشغلني ليس هو نفسي والدفاع عنها في المرتبة الأولى . كان يشغلني هذه النظرة الذي كان يلف بها هذا الفتى الناس والأشياء ، إنها نظرة تختلف عن نظرتنا ونحن نأكل ونلعب النرد أو نلقي إحدى النكت . . كان فيها حنان علوي مُرنٌ مشرق . . ترى هل اكتشفت السر ؟ . .

وعندما كان يراني . . يأخذ فمه شكل ابتسامة صغيرة أُحسُ معها أنه يفهمني ، وهذا مايدفع الغضب إلى نفسي . . كان يهدد أسواري وبنائي الصفيق الذي أقمته يوماً بعد يوم . . بل انني أشعر أنه اكتشف في نفسي ، أشياء فوق التي أعرفها . . إنه يعيش بهذا الفهم في هذا العالم واثقاً ، سعيداً رابطاً حياته بأمل كبير غني هو فوقي وفوق الناس وإن كان يستمد عناصره مني ومنهم . .

لاشك أن أمثاله في العالم كثيرون . . والذي يعذبني الآن اكتشافي لسرهم . . أو بالأحرى اكتشافي صداقتهم! فأنا وحيد وحدة عانس في قصر بارد أثري . . الرخام يتقلص حولي ، والجدران يذيبها وهج دافىء مجهول . . ويخيل لي أنني الجاهل الوحيد وأن الناس حولي يعرفون .

في أربعين أو خمسين أو ستين سنة أحياها يجب أن أفهم لماذا أحيا . لماذا آكل وأضحك وأذهب إلى القهوة وأنام كالأموات . وماإصراري على تسمية شخصي بالخائب ، والعبقري المضاع والذكي المثقف ، إلا تمويهات أخذت تفقد طلانها أمام عمق الحياة المخوف . وعظمة هذه المتتصبة التي تحيا . . لقد انزاح عن نفسي بعض الخوف منهم لأنني بدأت أتفهمهم . . وفي بعض الأحيان أسأل نفسي هل أنا حيوان ؟

أتساءل عن ذاتي هذه . . ماكنهها ؟ كيف يحق لي ألا أرى في العالم شيئاً يستحق الاهتمام سواها . . في بعض الأحيان أحس أن عالمي ضيق . . فقير . . ولاأعلم لماذا تتدافع إلى ذاكرتي تلك الصور المخيفة التي رأيتها في بيروت ذات مساء .

كان كهلاً مشوهاً قد التوت رقبته وانحنت عروقه حتى لامست عيناه صدره!! فهو كأنما يفتش في صدره عن شيء ضائع . . وعالمه كله كان منحصراً في هذا المثلث الصغير الذي تطاله عيناه . وشيئاً فشيئاً ينطفىء بريق عينيه ، حتى يصبح ذات يوم أعمى لثبات المنظر واللون في منظورات

حدقتيه . . العالم الخارجي بالنسبة إليه همهمات وأصداء تفقد رُواءها . . الحقيقة بالنسبة إليه هي هذا القميص القذر الذي يغطي صدره ، والذي يبهت يوماً بعد يوم حتى يمحى تماماً ولايبقى أمام العينين إلا الفراغ المظلم .س

الوحدة ؟ هذا السل الرهيب الذي يعمل في صدري تخريباً منذ زمن . . لقد أخذت أشعر بشيء من الصداقة لها . . صداقة ليس منها بد . وعندما تضغط على قفص العظام ، على صدري ، أضمها بقسوة مؤلمة وأغذيها بهدوء رجل ينتظر الموت بشجاعة . وفي بعض الأحيان أحاول أن أهرب منها . . أن أنسى وجهها المنعدم المعنى ، المتبرقع بالبياض الفاقع الممروض . . فأسهر حتى الصباح ، وأشرب حتى الانطفاء ، وأروح أتجول في المدينة أضحك لوجه لاأعرفه ، وأبتسم في وجه صاحب دكان مشوه بشكل شنيع وأبادله الحديث ، وأدع مراهناً يحاول أن يسلبني نقودي يضحك في سره من بلاهتي ، وأناقش سكران عن أفضل أنواع العرق ، وأمشي تحت المطر وأنا أشعر بلذة انحدار القطرات من تحت قميصي إلى بدني المرتعد ، وأدخلُ دكّاناً يُعلِّم إصابة الهدف وأصرف ساعة أحاول إصابة الطابة البيضاء التي ترقص على كف الماء . ثم أجلس أخيراً في محل عام لأشرب كأساً من عصير الجزر وأراقب النيون والاعلانات التي تومض في عصبية آلية ميتة قاسية . إني أريد شيئاً مختلفاً . أريد من يمسح على شعري ويقول لي كلمة حانية . . كلمة أفهم منها أن العالم صغير وكبير معاً . . بيت وميدان في آن . . وعندما أفكر هذا التفكير ، أراها في وجهها المقنع الممروض ، ضاحكة عن فم بلا أسنان ، تقترب مني في ثقة وأمل وقحَين . . ثم تقترب وتقترب وتقترب . إنها الوحدة . . إنها السل!

ماأطول التاريخ!! عندما أفكر بالإنسان منذ ابتدأ يتلمس قساوة الحجر والجو والحيوانات حوله حتى الآن ، أصاب بنوع من الدوار . وأنا عادة لاأحب هذا النوع من التفكير لأنه يسلمني إلى شعور بحقارتي . . أكان هؤلاء الناس مثلي وحيدين ؟ لايمكن ذلك . هل كان كل منهم يفتش في هذا العالم عن سر وجوده ؟ يامنجزات التاريخ العظيمة ، ياسر الانسان الخالد . . هل كان يعاني كل صانع لك هذا التمزق الذي أحسه ؟ من العجيب أن أوقن أن انساني القديم هذا يعرفني ويحس بوجودي ويحتقرني معاً . لقد استشعرت هزأه مني في أهرامات الجيزة وجنائن بابل وسور الصين وهياكل بعلبك ومدرجات بصرى . . عرفت هزأه مني أنا بالذات . لقد وقفت مراراً أمام أعمدة الجامع الأموي واستشعرت ثقلها على كاهلي . وكان أمامي جماعة كثيرة يمرون

أمامها بدون تكلف . كانوا يحسون بنوع من الصداقة أمامها يمنعهم من الشعور بالحيرة والغرابة تجاهها ، وكانت هي بالذات تبتسم لهم . . إنها امتداد عظمتهم . . وعندما كان الواحد منهم يجلس مسنداً ظهره إلى أحدها كان يحس أن العمود قطعة منه . لقد بُني له هو بالذات .

هل أنا فردي سيء إلى هذا الحد الذي أشعر إزاءه أنني منسلخ عن العالم ؟ مرة واحدة شعرت بإنسانيتي . . شعرت بأنني مع هذا الجمع . . مع هذه القامات التي تمشي على رجلين والتي تفكر وتحلم وتغني . . دخلت مشرباً في مقهى بولوني صغير . . كان الناس هناك من مختلف الأجناس يغنّون كاسرة واحدة . لم تحدجْني الأنظار مستفسرة حين دخلت . . لقد دخل إنسان جديد مثلهم ، وبعد لحظة انفجرت أغني أغنية عربية ، وسكت الجميع ونظروا إلي بحب . . لقد شعرت بهذا الحب كما أشعر بلمسة نار محرقة ، وداروا حولي وسألوني أن أرقص وأغني وأشرب معهم وأعلمهم أغنيتي . .

أيكون الجو والزمان والمكان وطريقة الحياة مايبعد الانسان عن أخيه في هذه الكرة ؟ أحس بأنني أعيش في جو خانق لاأستشعر كنهه ولونه ، ولو أنني موقن بقذارته وعدم إنسانيته . . لماذا أجلس الآن في مكان لبيع عصير الفاكهة في بيروت تداعب يداي النقود الكثيرة وأنا أشد بؤساً من أي إنسان في العالم ؟ أعرف أن بعضاً من هذه النقود التي تداعبها يداي في جيبي تجلب إلي ماأريده من لذة . . تجلب إلي الحب والحنان والاحترام وكل ماأريده رغم كونه مزيفاً . . ولكني مع ذلك أحس بعداوتها لي . . إنني أحتاجها . . وماكل اللذات التي تأتيني بها ستبعد عني في آخر الليل ذلك الشبح البغيض . . شبح الوحدة .

اليوم صباحاً عندما استيقظت في غرفتي بالفندق ، حييت الشخص الثاني الذي ينام معي في نفس غرفتي . وظللنا بعد ذلك ساعتين . . ساعتين كاملتين نغسل ونلبس ونقف أمام مرآة واحدة نمشط شعرنا ، ولانتكلم . . لم يفتح أحد منا فمه بحرف . . كان موقفاً سخيفاً وقاسياً وغير مفهوم . . إنه من المعقول عدم وجود أي شيء يمكن أن يتحدث به إنسانان في غرفة واحدة ؟ عن الطقس أو الأسعار أو البلد أو المهنة على الأقل . . كنا نتحاشى بعضنا بكثير من اللطف والكياسة ، حتى إذا خرج تنفست بارتياح وأخذت أدندن بأغنية ، وعندما تركت الغرفة سألت صاحب الفندق عنه فعرفت منه أنه سأله عني نفس السؤال .

كل واحد مثلي في جوي هذا يريد أن يدخل إلى العالم بطريقة حصان طروادة . . يجب أن يحتال وأن يكذب ، وأن يبتسم يتشنج ، وأن يضحك ، وأن يتبنى النظريات التي لانفهمها حتى يجلب السعادة إلى قلبه . . يالنفوسنا المعقدة الملتوية كدروب اللصوص!!

لست أبرىء نفسي رغم قذارة جوي . . ان شعوراً ضمنياً يصرخ في أعماقي بأنني مريض . . وأن كثيرين حولي . . كثيرين جداً قد اكتشفوا هذه الصلة التي تجمع بين الناس في مختلف القارات وأنا أعرفهم . . أعرف ذلك العامل ، وذلك الفلاح ، وذلك الطالب ، وذلك الصانع . . أعرفهم من وجوههم ، ومن نظراتهم وتصرفاتهم . . وعندما أقيس نفسي بهم ، أنا المثقف المحشو الرأس ، يداخلني شعور بضرورة اندغامي بالتراب .

فرديتي ؟ هذا الهراء الذي أبهج به كمثقف . . لم تكن الفردية ماشعر به كل العظماء عندما فهموا الانسان . صحيح أنهم أكدوا ذواتهم . . – لماذا أصر على هذه الكلمة ؟ – ولكنهم عرفوا ذواتهم في نفوس الآخرين . .

كيف يستطيع ذلك العامل أو الفلاح أو الصانع أن يندمجوا مع هذا الكون بهذا الانسجام ؟ . كيف يشعر كل منهم بالسيد العظيم في نفسه . . هل هم مجتمعون على هدف واحد ياترى ؟ . . آه ، إن رأسي يكاد أن ينفلق .

هناك أكثر من الضحكات والتفكير العميق المجدي في النادر والجلوس في المقهى خمس ساعات من أربع عشرة والأكل والشرب والتنفس والنوم . . هناك أكثر من الأيدي والأصابع والعيون والقامات والألبسة . .

ياعاملي . . ياصديقي . . ياإنسان . . ياأيها الجالسون في المقهى تضحكون وتحدقون في الفراغ . . ياأيتها القامات التي تحلم وتغني وتشتغل وتبدع على ظهر هذا الكوكب العجيب . . إنني أريد أن أقول لكم أشياء عظيمة . . أشياء بالغة العظمة والصدق . . إنني . . .

آه لشد ماأنا متعب . . سأذهب الآن لأشرب كأساً من العرق لعلني أستريح . ولعلي بعد ذلك أحظى بقليل من النوم . .

ونحن صرنا على سواة داعل ، واسأل الله العافية ، نار مثل زخ المطر . . ون ون ون ون . . العمى . . شو القصة ؟ ظهر أنه في داعل حامية فرنسية . معنا واحد من تل شهاب اسمه ياسين الحشيش رفع رأسه وصرخ :

– يا هالربع . . ياهالربع . . اتركونا . . نحن ثوار .

فما أجابونا إلا بالرصاص . نصب أبو موسى مترلوز وحرّك فيهم ضرب . . ثم اقتحم الشيخ الأشمر بفرسه البلد ، وهرب من بداخلها نحو طفس ، ومالحقنا نستريح حتى جاءت وش الصبح ١٢ طائرة حامت فوق البلد . بم . . بم . . بم . . كل قازان [١] قد الزمله . . طلعنا برات البلد ، ولما قويت الشمس جاءت الدبابات والمصفحات من خربة الغزالة ، صرخ الشيخ الأشمر ياهالربع اتركوهم يدخلوا بوسط البلد ونردمهم بالصخور .

وصلوا للبلد وبدأوا الضرب ، كان بيدي بمبة [٢] مشرّطة انكليزية ، لطيت للمصفحة ، ومابإن رفعت يدي لأقذفها ، حتى جاء بالقرب مني قازان طيارة . . عميت عيوني من الغبار ، وسمعت الصراخ حولي :

– راح أبو فارس . . راح أبو فارس .

وركضوا نحوي . . باطل[٣] . . باطل . . ياباطل راح أبو فارس ، دفعت البارودة من يدي وألقيت البمبة وتدحرجت بعيداً فصرخوا فرحين :

– ليكو أبو فارس طيب . . شد العزيمة ياسبع شد .

بعد برهة ، جاءت العسكر بعد الطيارات والمصفحات ، وصار الضحى المتين ، ،حمينا مع حموّ الشمس . . انحرفت العسكر مغرّب ، لحقناهم فتشتتوا ، ولحقت الطيارات والمصفحات العسكر لتحميهم ، وإذا بعواد بن ماضي يركب ويدعو جماعته .

قال الشيخ الأشمر ، وين ياشيخ عواد ؟ قال : فالّين! نحارب السما ؟ عسكر مابو[٤] .

مشى مشرّق ، لحقه عدوة السرور وجماعته ، لحقه الشيخ ديب القديمي بقينا وحدنا نحن أهل الميدان .

الولاد[٥] قالوا عطشنا ، رجعت عالبلد وجبت مي . . ركب الشيخ الأشمر فرسه حانقاً . . وين ياشيخنا ؟ قال أنا رايح رد هالأمة اللي راحت . . قلت له خير . . ركب الشيخ وطلع . . وهو طلع لحقته

---

(١) قنبلة . (٢) قنبلة يدوية .

(٣) كلمة سورية للتأسف (٤) لايوجد . (٥) يعني الرجال .

من يوميّات ثائر

«انحدر وحده عن قمة الجبل وهو يهز بندقيته بغضب في وجه الجيش ، وتخطى قاعاً عميقاً فذهلنا أمام هذا الجنون وكأننا قد صعقنا في أمكنتنا وهو مندفع كالسهم ، وجمد الكون من حولنا ، وصمتت الطبيعة ، فلم يعد يسمع غير وقع سنابك فرسه»

(لورنس) «أعمدة الحكمة السبعة»

وجدت هذه اليوميات الحية في دفتر صغير للثائر (. . .) ولقد حاولت أن أحتفظ ماأمكن بروحها ولغتها .

كان الشيخ لأشمر(١) بشرق الأردن بالشلاّلة ، وكنا بمعيته ننتظر أن نتجهز هناك أموالاً وسلاحاً وخيلاً . كنا كتار ، حوالي أربعميت ثورجي ، معنا جماعة من عرب المساعيد بقيادة عدوة السرور ، ومعنا عوّاد بن ماضي من بني صخر شيخ العيس ، والشيخ مصطفى الخليل وجماعته ، والشيخ ديب القديمي وسالم بن اسماعيل الترك من شيخ مسكين . وكنا نحن شباب الميدان(٢) ونبلغ حوالي التسعين بقيادة الأشمر .

تحركنا من شرق الأردن لنذهب بطريق الغارية على درعا عاللجاة ، حتى إذا وصلنا إلى تل عرار بين خربة الغزالة ودرعا وكان نقطة فرنسية ، هاجمناه فأشعلت الحامية فيه النار وأعطت الاشارة إلى درعا ، قبضنا على العسكر الموجودين ، ولغم الشيخ مصطفى خليل الجسر وراءنا ، ومشينا حتى وصلنا إلى داعل .

---

(١) أحد كبار قادة الثورة السورية .

(٢) أكبر حي في دمشق أحرق عدة مرات أيام الثورة وضرب وهدّم لأنه كان مغلقاً على الثوار .

الطائرات . . فيه طائرة طاردته مثل خيال يطارد خيال . . والله المترليوز شفناه وهو ممدود من الطائرة ، ترن ، ترن ، على الشيخ الأشمر ، والأشمر ساحب مثل الريح يميل يميناً وشمالاً حتى لايصيبه الرصاص . . انهرست خصوته ، ومنذ ذلك اليوم وحتى الآن ومعه وجع المثانة اللعين . . قول نفد الشيخ بعدها بعناية الله ، بقينا لبعد المغرب والشيخ لم يرجع . . حكمته صعوبات مع الذاهبين . .

انقطعت الطيارات بالليل . . قلنا يالله ياشباب عاللجاة . . الدليل عزو عباس وابنه صالح قالوا نعرف الطريق . . درت ، أنا (لله عبد) وأبو خالد نجيب وأبو سعيد فصرخنا عا الناس . . قال الحج كاسم وين ؟ انتظروا الشيخ . . قال أبو خالد مانترك الولاد هنا ، بكره يجو العسكر وتصير مذبحة ، ونحنا ظهرنا ليس محمياً . . تحمل الصراخ عالناس ساعة ومشيوا قدامنا حتى أمنّا آخر ثورجي ، ولكنهم كانوا قد سبقونا مسافة ساعة مع الدليل ، فلما مشينا ضيعناهم في الظلام . . لقينا فلاحين سألناهم منين راحوا ؟ قالوا من هون ، طردنا الخيل وراءهم فلم نرهم . . رجعنا يمين . شمال ، بلافائدة ، رجعنا إلى البلد حائرين ماذا نفعل .

قلتلهم ياجماعة يمكن أخذهم سالم على شيخ مسكين ، الحقوني لهناك وأنا دليلكم . . كنت ، أنا لله عبد ، وأبو خالد عبد الغني نجيب . . أبو سعيد دقماق ، أبو صياح الحرش ، رمضان دربازة ، عصمان بن عصمان ، أبو شاكر المقشاتي وأخوه ، وأولاد شسبركة الاثنين وأبوهم المريض . سيروا ياشباب على بركة الله .

مشينا من ابطح على شيخ مسكين . . قبل جسر الشيخ مسكين فيه تربة جنب المحطة القديمة ، الدنيا ظلام والقمر في المحاق ترفع اصبعك مابتشوفها ، كنا نكاد نموت من الجوع ، يومين ونحنا وخيلنا بدون أكل . . قلت لهم أنتم اقعدوا هنا حتى أعسّ البلد .

صرخ واحد من قلب العتمة فجأة :

– ويش هالزول (١) ؟

قلت :

– صاحب!

قال :

---

(١) من هذا الظل .

- شو هالصاحب بها الليل ؟
قلت :
- ياعمي طريق . . بتمنعوا الطريق ؟
قال :
- أسوق عليك الله(١) وجاه الله ، اكفونا شركم .
قلت :
- ياعمي ماالحنا يمكم (٢) ، تعال أسألك السؤال .
وقفت دقائق دون أن أتحرك ، وساد صمت . . صرخ الرجل من بعيد : بعدك واقف ؟
ومد البارودة : دي دي . . وصرخ بصوت متطاول يفزع (٣) جماعته :
- وي- ي- ي- ن رااحوا . .
وقت صاح ، تاري البلدة ملآنة عسكر . . رجعت كرفتة (٤) لقيت الجماعة راكبين ورفعوا راس خيلهم . وركبت ولحقت ربعي .
سمعنا صوت ، صارت الخيل ورانا ، ضربت مشطين وجماعتي ضربوا . ويالله ياخيل . . الخيل الأصيلة الجانعة سبقت الريح ، وجدنا أنفسنا أمام محطة ازرع . . أعوذ بالله! أكبر قلعة للفرنسيين ، ارجعوا ياشباب عناية ربانية جعلتهم يعموا عنا ، رجعنا من غرب الدنيلبة ، وسلّتنا (٥) على الطريق ، مشينا . . مشينا . . مشينا وبعدين وقفنا ، فقال أبو خالد ، الله يرضي روحه في أعلى عليين (تاريخ وفاته ، في معركة الغوطة ، حرقة بقلبي ، ماكتبتها بعد) :
- خلينا نفوت عاللجاة .
-قلت :
- ياأبو خالد ، إذا فتنتا عاللجاة ، عمرنا لعند على بكره ، مليانة زرار صفر (٦) أمامكم ياشرقي الأردن ، يا الشام .
حولنا على الأرض ، لقينا شوية حصيد ، صارت الخيل تاكل بعض الهشيم ، كوعنا (٧) على بواريدنا ، أخذت غفوة ساعة وانتبهت مذعوراً :

---

(١)بحق الله . (٢) لانريد بكم شراً .

(٣)يستنجد . (٤) لهوجة أو دحرجة كناية عن الارتباك الشديد .

(٥) نزلنا برفق وتسلل .

(٦) عسكر وضباط . (٧) وضعنا كوعنا على بواريدنا .

- أبو خالد ، أبو صياح ، رمضان اقعدوا . . اعطوني سيجارة . شعلت السيجارة ، فهدأ روعي ، قلت : وين ياجماعة ؟ فقال أبو خالد :

- عالشام . . خلينا نموت بأرضنا . . بالله امشوا على بركة الله .

وصلنا محطة (محجة) وإذا بها عسكر . . وإذا بيرجكتور يكشفنا ، غربينا حقل ذرة ، ألقينا حالنا بالذرة ، وجررنا خيلنا فيها حتى وصلنا إلى تل المقداد وطلع الضوء .

نظرنا أمامنا وإذا بخيام عرب قدامنا ، وصلنا إليهم والشمس بدرت ، ميلنا وحولنا على خيلنا . . وأكلنا خبز ناشف ماكان عندهم شيء غيره .

أكلت لقمة مانزلت ببلعومي ، زتّيتها (١) ، أكلت الثانية لحشتها (٢) . . حتى سال ريقي وقدرت آكل .

تاري ورانا جواسيس لاحقينا من بلد اسمها مشغرا ، نزلوا عندالعرب قبلنا وقالوا لهم عنا . فحكى لنا البدوي ، قلنا له نحنا مالنا مقيمين ، نريد باب الله . . قال :

- ياخيو انزلوا خربة الدلّ ، مابوها(٣) حدا .

ساعتها صرخنا على أبو خالد وأبو سعيد اركبوا . . ركبنا . . وصلنا على خربة الدلّ . كانت خربة عالية فيها مثل البايكة (٤) حطينا الخيل بهالبايكة ، والخيل الأصيلة صارت تأكل الزبل . . ياحيف!!

عملنا حراسة كل واحد ودربيله(٥) . وقفت حارساً ونام الآخرون . . صار يحكّني بدني ، قلت ياولد اشلح وإذا اجت العسكر الشياب ماترد الرصاص . . شلحت وفلّيت نفسي من القمل وعنّ على بالي النفَس . أخرجت الأركيلة من الخرج ولّميت حرز شوك وساويت نفس أركيلة . هيك حتى صارت الدنيا الظهر . صرخت على واحد آخر ، أظن أنه أبو سعيد ، ورجعت أنام ، لما سهيت عيني ، سبحان من لاينام ، صرخ أبو سعيد : هاي اثنين درك خلينا نضربهم وناخذ خيلهم ، قلت له : درك مابدنا . . على كل هدول ولادنا ولحم كتافنا . . آخرتهم لنا . . مرقوا عنا بعيدين شوي ، رجعت ونمت . . أظن أنني أغفيت ساعة وقت صرخ أبو سعيد ، فزّينا كلنا ورحنا لعنده ، لقيت عنده أبو خالد (الله ينور ترابه بمطر نيسان) قال المرحوم :

---

(١) رميتها . (٢) رميتها أيضاً .

(٣) ليس فيها أحد . (٤) مستودع كبير للحبوب

(٥) منظاره .

- شوف يابي .

وهز رأسه وعيونه تشتعل مثل نجمة الصبح ، ونظرت وإذا بخيل كثيرة ، وإذا ببيرق يشبه بيرقنا . ياهل ترى جماعتنا وأولادنا ؟ لكن ياربع جماعتنا مو بها العدد ، تطلّعنا بالدربيل ، لقينا معهم ضباط فرنسيون ، عرفنا أنها علقت .

وقفوا أمام طاحون قريبة منا ، ثم فرّقهم الضباط ، وإذا بالعسكر انفردت في كل الاتجاهات وطوقوا الخربة . . فهمنا . . من ها المراح ما في براح (١) معنا ست بواريد فقط . انتظرنا وشمينا ريحة الموت بأنوفنا . . ياشباب هاللي ينفد من هالوقعة يخبّر أهلنا أنّا متناهون ، قبل ماتاكلنا نسور الفلا وسمّعونا الفاتحة . . كل ضَرْب قولوا اللّه أكبر . واضربوا على اللحم . . يا بالزمالة يا براعيها(٢) .

بلّش الضرب من المعسكر ، فجاوبنا . صبت فرس بسبّتها(٣) فهجمت نحونا بخرجها . تلفّتنا مغرّب ، فوجدنا ضابط لابس عباية حمرا مقصّبة وراكب فرس وملبّسها ومدندشها بالقصب تقول جاية لمعرض . وكان معه خمس خيالة . وتوجهوا صوبنا لأجل التسليم ، وصرخوا علينا : استسلموا وانفدوا بحياتكم .

كانوا لايعرفون عدددنا . . وأظن أنهم قدروا أننا مئة أو أكثر لأننا توزعنا بشكل منيح وتَرّسنا وراء حاجز صخري .

صرنا ننخي بعضنا : عيال عمي . . عصابة راسي . عيال الميدان اخواني . . قرايبي . . وهذا يقول : ابشر ياما عندك اشهدوا لي . بم ، بم ، بم ، اي ، اي . . وإذا بخمسة ملقحون على الأرض . . كنا ممرنين على النيشان نصيب خرم الابرة ، الضابط علقة رجله بالركاب ، وانجرَّ مدة ، ثم تخلص ووقع في قناة الطاحون ، السادس شمَّع الخيط(٤) . . صرخت : أبو خالد عندك هالخاين الوطن . . فرفع أبو خالد باردوته والمسافة بعيدة جداً . . بم . . رفعت الفرس قدميها وسقطت . . والفارس تدركل وتدحرج هارباً . . باطل . . باطل . . بسيطة اللّه ماهو قاتله . شرّقت فرس والخمسة جاءت

---

(١) مثل يعني أننا لامهرب لنا من مكاننا .

(٢) أي اما بالفرس وإما براكبها .

(٣) بمؤخرتها . (٤) تعبير شعبي يعني أنه هرب .

صوبنا وصارت قبالنا ، وقفت لأجيء بالخيل ، فتساقط أمامي الرصاص على التراب لدرجة أنني لم أر شيئاً من الغبار والعجاج . . صرخ أبو خالد ، الله ينور روحه : وين ؟ يلعن دين الخيل وسما الخيل! لم أجب . شعرت أن كسب الحرب لذيذ ، لذيذ ، ألذ من ربح التجارة . . نزلت من مغرّب واسناولت(١) هالخيل ورجعت على الخربة ، وبركت منها فرس مجروحة على الأرض فوراً . ركضت على الخرج فإذا بها مليئة بالسلب والنهب : قماش ، صحون ، طناجر . . ولقينا أكل وشعير للخيل وفشك بما هو كفاية ، ورجعت لعند ربعي بالذخيرة والطعام .

ملّينا من الضرب ، وحبّينا الموت . كان العسكر يتقدمون ويرجعون بعد أن يتركوا على الأرض مافيه النصيب ، ورأيت بالدربيل كيف أن الضباط غاضبون . كان العسكر مرتزقة طالعين من شان النهب والسلب ، ولذلك مافيهم حيل للموت ، صاروا يتراجعون مذعورين . قلت لأبي خالد وقد ضرب جنون الحرب برأسي : شورأيك نمشي عليهم ؟

وبدون أن يفوه أبو خالد بكلمة واحدة نهض ومشى ، لحقته ، نزلنا بمنخفض ، صار العسكر المتقدمين لما شافونا يصرخون بطلب النجدة ، قلت لأبو خالد :

-يا ترى هون الطرابة (٢) ياأبو خالد ام نحكي السالفة لأولادنا ؟

قال بجفاف : سلّم لله .

بقي معنا خمس بواريد لأنه في واحد أصيب ، حمونا ربعنا من ورائنا . . لحقنا عصمان بن عصمان . هناك قناة الطاحون وعمقها متران ونصف . نزلت قبل ربعي لقيت على بعد عشرين متر الضابط صاحب العباءة المجروح ومعه خمس عساكر يريدون نقله ونقل الجرحى الباقين واحد واحد . انقصفت رجلي وانهد حيلي ، وبهتنا أنا وهم ثواني . مديت البارودة ، دي دي ، ضربت الأول والثاني ، وتسلقت القناة إلى الأرض بمعجزة . صرت فوق ولهثت أقول لأبو خالد : العسكر هون . فنزل ونزلت وراءه وعثمان لقيناهم ساحبين الجرحي . . أخذت العباية المقصبة ولفيتها على ها الايد الخاطية ، قال عثمان عمي أبو فارس بدي الحدية(٣) ، قلت ابشر بالعطية وأعطيته العقال . .

---

(١) تناولت .

(٢) انموت هنا .

(٣) أريد البشارة .

صار الوقت قبل الغروب . . ريقنا نشف . وحالتنا بالويل . ضربنا لقينا العسكر ركضت قِبلة (١) نحو الطاحون . . شو ردّها ؟ مابعرف! يمكن رجعوا ياخذوا أوامر من الضباط في الطاحون . قال أبو خالد :

- أخوي أبو فارس ، عصابة راسي عثمان . . هلأ وقتكم . . الفشكة تأخذ على قدر قوتها اثنين وثلاثة وأربعة . . العسكر متجمعين .

ضربنا خمسة أمشاط متتابعة من الذخيرة المنهوبة ففرقنا العسكر . . الولاد عم يضربوا من الخربة ونحنا لاحقين العسكر نضرب لبعد المغرب . . رجعنا عالخربة ، لقينا الولاد ساحبين الخيل وجايين ، تركنا الخربة لبعد خمسمائة متر . . وإذا بنا نسمع ضرب الرصاص والهجوم على الخربة وراءنا . . فهمنا سبب تجمع العسكر . ركبنا خيلنا الجديدة ولفينا لخيلنا الأصيلة «مريج »(٢) في واحد بدوي جاء لعندنا وقال ياربع ، أنا أدلكم على الطريق لشرق الأردن . قال أبو خالد وابشر بليرة عصملية . قال عيب انتو جماعة ، شجعان عجبتوني ، والرجال عند بعضها . . ركب الدليل فرس مريج . ابتعدنا عن الخربة ، ونحن بسن نوى (٣) ونسمع العسكر وراءنا يضربون على الخربة بالرصاص .

كنت باخن(٤) الطريق . طلعنا على عين الضبيّ غربي طفس وصلنا لشرقي المزيريب حتى طلعنا على أرض شرقي الأردن ، وصلنا للشلالة ، مطرحنا الأصلي ، ونحنا وخيلنا بدون أكل ، إذ ماوجدناه لم يكد يقعد بقرنة بطوننا . بعد الشمس توجهنا عالرمتا ونحنا ماشين وإذا بعسكر عليهم قائد شركسي اسمه أحمد رمزي شيشاني ، ولد مثل الأسد الله يسعد مساه ، رفعنا البواريد واستعدينا بعث أحمد رمزي شاويش وقال واحد منكم يكلم القائد . . قال أبو خالد أنا مابروح ، مابعرف احكي ، أخاف يحكي كلمة وأجاوبه برصاصة ، روح انت ونحنا بنحميك . استقبلني مبتسماً وقال نسألك سؤال : وين الشيخ الأشمر ؟ قلت لاأعرف .فرك يديه بأسف وقال : شوصار معكم ؟ حكيت له كل شيء . قال وين أصحاب الخيل ؟ قلت له : في صقر(٥) ووادي الأحمر ، وها الخيل مريج من العسكر ذبحنا ١٨ و ٢٢ مصاويب وست روس خيل ، وضحك وفرح رمزي ثم قال ، وين ؟ قلنا على بلادنا . قال

---

(١) جنوباً .

(٢) مريج : تعبير شعبي يعني أن تلف الرسن على عنق الخيل وتتركها فيقودها الفرس التي تركبها .

(٣) أي بمحاذاة نوى . (٤) باخن أي عارف . (٥) في جهنم .

إذا أردتم الرمتا انتو غشما الطريق من هنا . . خذوا ذخيرة من هناك وتوجهوا بعون الله . مشي معنا الشاويش دليل وهو يردد : الله ينصركم . . الله ياخذ بيدكم .

قبل مانصل للرمتا وصل خبر للشيخ الأشمر وهو في الرمتا أن أبو خالد وأبو فارس استشهدوا . ضرب ايده على رأسه وصرخ ومن وقتها ووجع الرأس يلازمه حتى الآن .

وصلنا من قبل الرمتا إلى قرية اسمها البويضة ، وأبو خالد ميّل على البلد ليشوف الخيل . بقيت أنا ورمضان وأحمد الحرش . بقينا لبعد العصر وإذا بأبو هاشم رحمون صرخ علينا وجايب لنا طعام ، أذكر أنه فاصوليا وبرغل .

ركبنا على الرمتا ، حتى وصلنا إلى الشيخ الأشمر . كان قاعد على حجر وهو كامد . . لما رآني فتح عيونه وماحسن يقوم من التأثر .

* * *

« كان الثوار بالأزرق في شرق الأردن . توجهوا نحو وادي حسان ، ثم نحو الغيات ، كانوا في غاية الجوع والعطش . صاروا يأكلون لحم الحصان . اشتروا جمل في الطريق وذبحوه . توجهوا نحو المرج في الغوطة حتى وصلوا إلى بحيرة العتيبة فحوّلوا هناك عند عرب الروَلة ، وأكلوا وشربوا . كانوا كثيرين يعدون أربعمئة مجاهد ، توجهوا نحو مخفر النشّابية فعرفت العسكر بهم فطلبت نجدة واحتاطت لنفسها . ولكن الثوار هاجموا المخفر ، وقتلوا من كان فيه . وأول من فات على المخفر أبو سعيد دقماق . اللي بقي من العسكر هرب وخبَّر الشام . مشيوا أولادنا من النشابية على حوش خرابو ، على تل الدهب وصلوا لبالة – قرية شكري القوتلي – وإذا بالعسكر تحاصرهم . كان الثوار مكشوفين الولاد يصيروا ينخّوا بعضهم البعض . برز أبو خالد في رأسهم ولحقته الخلق . عملوا هجوم عالعسكر وردوها . عملوا العسكر التفاف جديد ولكن ولادنا كسروها مرة ثانية . آه ياأبو خالد ياسبع الرجال .

في تلك اللحظة جاءت نجدة كبيرة للعسكر وجرى القتال . تصوّب أبو عزو الشعّار وكامل العقل قفز النهر ولكنه غرق فيه وجرفه التيار . . جاءت

حاشية : عن موتة حبة قلبي اشجع العرب والعجم والبربر الزعيم أبو خالد عبد الغني نجيب جعل الله روحه في أعلى عليين .

مصفحتان نحو بالة ، وبدأ موقف الثوار يتزعزع ولكن أبو خالد بدأ ينخيهم ويصرخ فيهم ، رغم أنه بالعشرة مابيتعاشر ورغم أنه جاف ، لكن قلبه كنبع الفيجة فقد كانت كلمته عند الزلم مابتصير تنين . صرخ فيهم طاب الموت ياأسود اليوم يومكم . وتبعته الخلق كالمجانين وتركهم أبو خالد ودار من قبلة حتى يضرب المصفحتين من القفا ، حسُّوا فيه ، فتوجه المترليوز نحوه بم بم بم . . سقط أبو خالد . . في المنتصف بين الثوار والفرنسيين . أبو خالد وقع وهالعالم انفك عصَبها ، الرجال المغبرين صاروا يبكون مثل النسوان . . صارالأمير عز الدين الجزائري وسعيد العاص يشجع فيهم ليسحبوه . ولكنه كان يشير بيديه ليرد ولادنا عن المصفحات صارخاً :

– اتركوني اتركوني . . وديعتي عندكم ابني خالد . . وبقي في الوسط حتى صفي دمه .

ولادنا يعملون مناحة عليه ويبلشوا بالمصاويب حتى الظلام فينسحبون . المصفحتين واقفين بيننا وبين الحثة . الأمير عز الدين يأخذ جماعته ويتجه شمال على الجرد . أولاد قطاط يذهبون إلى جوبر . . ولادنا بتنزل وبتجي على الميدان غير شايفة طريقها . . بيطلعوا الفلاحين بيسحبوا أبوخالد وبيدفنوه ببالة . انكسر ضهري وسخنت أسبوعين . نسوان الميدان يسمون منة ولد جديد عبد الغني .

الله يرحمك يابو خالد .

الخفّاش يفتح عينيه

نجمة الصبح ياحطام الليالي ورماد اللفافة السوداء
خلفتك الظلماء عقباً ذليلاً تحت أقدام كبرياء الضياء

عبد المطلب الأمين

عندما وصلا إليه ، كان يحدّق بكل وجهه المحتقن المخنوق في الأرض ، بإمعان خياطة أضاعت إبرة . ولم يشعر بهما البتة . . وامتدت يده تحل رباط عنقه ، والثانية تبعد عن الضوء الباهت الذي يرشه مصباح في آخر الممر ، الأرجل الأربع التي انتصبت في وجهه .

وصاح جريس مشفقاً بصوت فيه دهشة وبؤس :

- قوم ياسما . . مافي شي!!

أما مفيد فقد أصلح وضع جاكتته بصمت ، ثم سحب من جيبه عوداًمن الكبريت وأشعله في الوقت الذي أشعل فيه جريس عوداً آخر .

وانحنت ست عيون ، وتجمعت على الدائرة التي انحدرت من فمه قبل لحظات باحثة منقبة كأنها في مختبر تحليلي . قال جريس وهو يتنهد :

- قلت لك مافي شي . . وهم . .

ونفض مفيد بذلته وأمّن :

- طبعاً وهم . . طول عمرك ياسليمان تتوهم

ولكن سليمان ظل يحدق في السائل :

- وهذا الخيط الأصفر المحمرّ ؟

- بقية سيجارة . . ظاهر .

فوقف سليمان يتحامل على نفسه ، وفي عينيه الدامعتين شيء من خيبة

الأمل ، لقد فقد محوراً يلوّن حياته أياماً كاملة ، حتى ولو عرف في آخر الأمر أنه وهم .

– ولكن اقسم لكم ، أنني رأيت منذ ساعتين فقط ، بقعاً حمراء من الدم تخالط ريقي عندما بصقت!!

قال جريس بنفس اللهجة البائسة محمّلاً كلماته سخرية لامعنى لها :

– هذا لون عينيك الحمراوين ياسليمان . ويمكن أن تكون مصاب بعمى ألوان .

ونظر سليمان إلى عيون رفيقه ، وخيل إليه رغم الظلام أن فيهما نظرة أشعرته بالضيق . . هل أسفا هما أيضاً ؟ لعلهما يريدان برهاناً حياً ، على مايحدّثهما به دائماً من قصص عجيبة! ولم تكن خيبة أملهما عندما حدقا في الأرض على ضوء عودي الكبريت المرتجفين لتقلّ عن خيبة أمله إذا لم تفقها ، ذلك لأنهما ينظران إلى المأساة من بعيد .

وأحس سليمان بشيء من الخجل ، منذ ساعتين وهو يحدثهما وينظر إلى وجهيهما المبهورين ، ويتابع رحلة كلماته فيهما من الآذان إلى العيون ، إلى الأصابع ، إلى كؤوس العرق وهي تكرع في الشفاه بطريقة عصبية ، ورضاه عن نفس وهو يقص قصصاً يظن هو بالذات أنها حقيقية وأنه قد نسيها من قبل ، أخذ يشوبه بعض الانهيار ، لأنه يعتقد أنه عُصر كليمونة ، وأن كلماته تتحدث إلى جيل آخر رغم عدم تفاوت السن . منذ ساعتين وهو يحدثهما عن بؤس حياته ، وعن غناها الرائع ، بلهجة معلم يطلب من مريديه أن يُغْنوا حياتهم بأشياء يظن هو بأنها غير تافهة . النساء ياأصدقائي . . المرأة تجربة تُغني وتخرق ، ومجتمعنا يمنعها . . إنه يشوه وجهها الانساني . منذ سنتين كنت في حلب!! ومنذ ساعتين وهو يرفع من أشلاء نفسه كلاً عظيماً ، لم يصل إلى هذه العظمة إلا بتجارب تعصر وتقتل وتجعل للحياة معنى . وأفهمهما ، ولعله أراد أن يفهم نفسه ، أن هذا التمزق الذي يعانيه ، سببه أنه أضاع التوازن ، بين نفس مسحوقة وإيمان عميق بالحياة وساكنيها . كيف يناضل الرجل ياأصدقاء ؟ أنا مؤمن بأشياء عظيمة ، حياتنا بائسة ويجب أن نغيرها ، اتعرفون ؟ واستمر يتحدث حديثاً طوباوياً مدة ساعتين ، ومنذ ساعتين أيضاً بصق بصقة حمراء .

قال بصوت لالون فيه ، وهو يلقي نظرة أخيرة نحو الدائرة وعيدان الكبريت الميتة :

– كم الساعة ؟

- الثانية .
- معنا وقت . . اطلعوا .
وصعوا الدرج بصمت . كانا يتقدمانه ، وأخذ يراقب ظهريهما بشيء من الغضب ، ثم أشعل سيجارة وضحك ضحكة مبتسرة .
- شيء طريف وسخيف معاً .
ولم يرد الآخران .
وفي البهو كانت الرائحة الخاصة ، التي تعطي المكان هويته . قد أسرعت إلى أنوفهم ، وتوقفوا يبحثون .
قال سليمان جازماً :
- سأذهب إلى وصفية!!
وابتعد مفيد فجأة ، وهو يسلم بلطف زائد على امرأة سمراء تلبس بنطلوناً صارخ الحمرة ، وكان يترنح قليلاً من السكر .
قال سليمان مرة ثانية بنفس الجزم :
- سأذهب حتماً إلى وصفية .!
قال جريس من فوق كتفه :
- ذوقك عجيب ، أنا لاأستطيع مطلقاً أن أدخل مع امرأة سمينة . إنها تخبصني!
وأردف بعد قليل :
- أعطني خمس ليرات .
- من المؤكد أنني سأذهب إلى وصفية رغم كونها سمينة . . إنها مجربة ولطيفة . تصور أنني لم أسمع في عمري من فمها كلمة نابية واحدة . سيدة حقيقية!
- أما أنا فقد أعجبتني تلك . انظر إليها جيداً . ماشي الحال ، أليس كذلك ؟ وفرك عينيه المحمرتين العكرتين .
- المهم التفاهم .
- أعطني خمس ليرات . . أنا لاأحب مطلقاً أن تدفع عني هنا .
واقترب مفيد :
- اي نعم . . ماذا قررتم سادتي ؟
قال جريس :
- هل تحب أن تدخل مع امرأة سمينة يامفيد ؟ أما من جهتي فأنا حتماً لاأستطيع أن أدخل مطلقاً مع . .

وقال سليمان مقاطعاً :

- هاهي وصفية . . من المؤكد أنني سأدخل معها . . . إذا سألتك جان عني ، فقل لها إنني مع وصفية .

- أنا مادخلت ولاخرجت .

-لا . . أنا أقول لك . . لعنة اللّه على هذا العرق . أنا لم أتصور مطلقاً . . سأدخل حتماً مع وصفية . . إنها لطيفة . . تصور أنني لم أسمع منها في عمري كلمة نابية واحدة .

ووزع مفيد ابتسامتين بالتساوي لمارتين ، وانحنى لثالثة ، فقال جريس غاضباً :

- العمى . . أنا لاأشك مطلقاً أنك رقيع .

قال مفيد بهدوء كمن اعتاد ذلك :

- منذ زمن ، قررت نهائياً وبصورة حتمية ، أن لاأردّ على كل ماتقول .

قال سليمان وهو يتحرك نحو الوجه المبتسم :

- تفضلوا سادتي .

ولكزه جريس هامساً :

- اعطني خمس ليرات .

وقال مفيد :

- أنا سأذهب إلى تلك . . بخاطركم .

ولكنه لحقهما إلى داخل الغرفة .

قالت وصفية بابتسامة بدت لسليمان أليمة :

- من زمان ها القمر ما بان!

فأجاب سليمان وهو يستند على الكرسي العريض ويحدق في السقف الذي حفظ تعرجاته :

- اطلبي أربعة قهوة ، واحد منهم سكر قليل .

قالت وصفية ضاحكة مكملة :

- مع هيل بفنجان سميك . . ونظر سليمان إلى رفيقيه . .

مفيد يحدق في حذائه اللامع باهتمام ، أما جريس فقد كان يجلس جامعاً ركبتيه على نحوِ طفولي خجِل ، وهز سليمان رأسه بحب وقال في نفسه :

- ذكاء على مستوى ممتاز . . ولكن . .

ورفع صوته :

- مرحباً جريس .

ورد جريس بصوت مبحوح :

- أهلين . .

وقال سليمان في نفسه :

- ولد طيب ، إلى حد مؤلم . . وشعر بتعاسة وبشيخوخة :

- كم عمرك ياجريس ؟

- عشرون .

-كم تظن عمري أنا ؟

- أنت ؟ عمرك حتماً . . أنا اأشك مطلقاً أنك تجاوزت الثلاثين .

وصمت سليمان . . وتراءت من خلال ذاكرته المشوشة هذه السنوات التي تفصلهما . . يجب أن لايقول لجريس أن عمره ست وعشرون فقط . . هو نفسه لايصدق . لقد عاش دهراً طويلاً . طويلاً جداً ، تقاس كل لحظاته بساعة حساسة قاسية ، تبدو عقاربها كأسنان شيطان . . حياته في البيت المحافظ الذي تمزقه الخلافات والمعارك . . إيمانه المطلق بالمقدسات الذي انتزعته منه الجامعة في السنة الأولى . . انفصاله عن أهله الذين لم يغفروا له أبداً تحطيم عالمهم . . حبه الأول الفاشل . . مغامراته القذرة . . اندفاعه في سبيل مبدأ آخر لايزال حتى الآن مؤمناً به إيماناًيخزه كالسهم في أعماقه ، ويشعره بتفاهة حمله للمسؤولية . . لعبه القمار . . شربه العرق حتى الإدمان . . كتاباته التي لايفهمها إلا القلة . . انسحاقه في دوامة الرتابة . . أمله وفرحه ويأسه وحزنه وقراءاته . . بصقته التي خيبت فيه الأمل لأنها لم تكن ملوثة بالدم .

قال بصوت حنون من أعماقه :

- أنت ولد طيب ياجريس .!!

وخجل جريس ونظر إلى وصفية المبتسمة دائماً .

- اسمع ، أنا لاأسمح مطلقاً . .

- أنت ولد طيب جداً ياجريس . . عمرك عشرون سنة فقط أليس كذلك ؟ أتعرف ياجريس ؟ أحببت امرأة وأنا في العشرين عمرها أربعون سنة . . ووقتها كنت أنا أيضاً ولداً طيباً . .

وقال جريس وهو ينظر في أعماق عيني سليمان بصورة ثابتة بريئة وواثقة إلى حد ما :

- ما الذي يضايقك ؟

- وكانت مليئة باللحم ياجريس . . وتحب دماً أن تأكل الرز شائطاً بعض

الشيء ، ومن الهدايا المحببة إليها كيس رز يزن كيلوين ، وكانت تفضله على باقة زهر وقنينة كولونيا .

قالت وصفية بدهشة :

– كيس رز ؟ أنا لاأتصور أن أحداً يأتيني بكيس رز ولو أنني لاأرفضه!!

– وكانت تطلب مني ياجريس . أن أقبل خدها فقط ، ولاتسمح لي قط أن أقبل فمها . . وكانت تغضب حينما أسألها عن السبب ، وكانت تصلي أيضاً ياجريس . . وتمنعني من مسها في بعض الأحيان ، وتبكي كثيراً حين أقول لها إن عمري عشرون سنة . .

ونظر سليمان إلى العيون المعلقة به وتابع حالماً :

– لقد كنت محبوباً . . إنه لشيء عظيم أن يكون الانسان محبوباً . . ومرة جثت على قدمي وأخذت تقبلها فصرخت جزعاً قائلاً : لماذا ياست زينب ؟وكانت تمنعني أن أناديها بياحبيبتي ، فقالت وبكاؤها يشتد : أنا خاطئة يارب ، أنا خاطئة ياسليمان . . لتدق عظامي ، لتنطفىء عيناي ، لتقطع يداي ورجلاي . . لتزهق روحي ، أنا خاطئة يارب ، أنا جيفة ، أنا كلبة ، أنا مومس بغي قذرة . وكانت تضربني بعنف . .

وركعت أنا عليها بشقاء قاتل ، وتأكدوا أنني كنت في تلك اللحظة مستعداً لأن أهبها حياتي ، أن أفعل أي شيء لأفهم سر عذابها ، وقلت ودموعي تتساقط بطفولة : ياإلهي . . يامعبودتي ياحياتي . . ماهي المشكلة ؟ سأقتل نفسي إذا لم تقولي لي ماذا يبكيك ، لاتضربي صدرك هكذا . . إنك تدفعيني إلى الجنون . دعيني أقبل قدميك ، لاتبكي هكذا ، بحق السماء لاتفعلي ذلك .

ووقفتْ لحظة تنظر إلي طويلاً من خلال دموعها ، ثم هجمت عليّ ، وأغرقتني بسيل من القبل المحرقة وهي تصرخ :

أنت لاتفهم ياسليمان . . أنت لن تفهم مطلقاً . . أنت صغير ، عمرك عشرون سنة فقط . . عشرون سنة ياإلهي . . ودفعتني نحو الباب . ولم تفد كل استرحاماتي ودموعي ، ووقفتُ على الباب حتى الصباح أستجدي عطفها دون أن أسمع صوتاً واحداً يرد علي .

وصمت سليمان وتطلع في ست عيون مفتوحة مغرورقة بالدمع والدهشة ، ثم قال بصوت آلي :

– وفي اليوم الثاني لم أستطع أن أمشي في جنازتها إلا من بعيد .

وساد سكون مرهق طويل قطعته وصفية بنظرة إلى الساعة ، فوقف

جريس ومفيد وتقدما نحو الباب ونهض سليمان يدس يده في جيبه ويضع في يد جريس خمساً وعشرين ليرة وقال بغصة وهو يربت على كتفه وشعره :

- أنت ولد طيب ياجريس ، أليس كذلك ؟

وتقدم باستسلام بليد نحو السرير .

* * *

في غبش الصبح مشى الثلاثة صامتين . نظر إليهم كنّاس عجوز وأرسل من شفتيه همهمة مبهمة ، وقال جريس بعد تنهد وهو يهز رأسه :

- إنها لتجربة غريبة . . اسطورية .

وصحا سليمان من صمته :

- أية تجربة ؟

- تجربة حبك التي قصصتها علينا .

- آه .

وشعر سليمان بحاجة إلى أن يغضب ، إلى أن يفعل شيئاً قاسياً ما . . إنه يعرف نفسه تماماً ، ومامن مرة ضاع في دهاليزها المعقدة . ولقد قال له الآخرون ، جميعهم ، انه طيب ، وهو بسيط وهو من جهته لم يشك بهذه الحقيقة . اقتنع بها في كل فرصة أتيحت له ليعمل عملاً نبيلاً ، ولكنه كان دوماً مسحوقاً تحت شعور كالح . لقد أتيح له حقاً أن ينفض الرماد عن نفس كابية بيضاء ، ولكنه لم يخلق أبداً فرصته . إنه يريد أن يخلق هذه الفرصة ، أن تكون المبادرة منه هو بالذات ، ويشعر أن مايميزه كإنسان يجب أن يكون شيئاً من هذا . لايكفي أن يكون طيباً وفاهماً للكون ، مؤمناً به ، محترماً لكرامة البشر . كان يحس أنه يجب أن يعمل لكل ذلك : لهذا المستقبل المشرق في نظره . العرق ، النساء ، الأصدقاء الذين يمارس سيطرته عليهم ، القصص الكثيرة التي عاشها والتي لم يعشها في أتون تجاربه الحياتية والذهنية ، كلها هروب ، كلها هباء ، كلها باطل وقبض الريح . ونظر إلى جريس . إنه ولد طيب ، أما الآخر المتأنق . . . وفكر بأن صحبتهما مبررة تماماً ، ككل الصداقات التي مرت عليه . إنه يشعر أنه بحاجة إلى أن يكون محاطاً بالناس . . الناس الذين هم من نوع واحد ، بالمعجبين الذين يستمعون إلى حديثه وتجاربه سواء تلك التي عاشها حقاً أو

التي اخترعها حقاً . يريد أن يحس في أعماقه شيئاً يرسل إلى الآخرين شعوراً بالسعادة ، والثقة ، والحب ، وبأهميته هو ، ككائن لايزال ذا كيان عظيم .

وكان مفيد وجريس يتناقشان في قضية ويتراشقان التهم :- أنت لاتفهم شيئاً ، تلك تجربة شعورية صحيحة ، أنا لاأشك مطلقاً أنك لاتعرف سوى ربط أنشوطة حذائك اللامع ، ورباط عنقك الغالي ، وتصفيف شعرك المدهش .

– وقاحة معروفة منك . الحياة على كل حال ستعلمك أشياء كثيرة .

– الحياة ؟ لاتتحدث عن الحياة . إنك لم تفهمها يوماً على وجهها الصحيح .

وأردف جريس يقول حالماً :

– إني أحبها . . هذه الجمالات الرائعة! لي ثقة بكل شيء .

– طفل!

– أنا طفل ؟ تعال . . كلانا يثق بسليمان ، أنا أقبله حكماً وأخضع لرأيه .

ونظر سليمان إلى الوجه الطفولي المتّقد بالثقة والأمل ، وأحس بحرقة في حلقه وبشيء يقبض على عنقه . لا ، لن يفسد كل هذا العالم الشامخ ، مطلقاً مطلقاً . وابتعد قليلاً عنهما وهما لايزالان يتهارشان . كانت نجمة الصبح تطلع من بعيد ، قوية مؤتلقة صاحية . وعلى الطريق ، كان فريق من العمال ينتظرون السيارة ليذهبوا إلى أماكن عملهم ، بعضهم يتثاءب ويطرد بقية النوم من عينيه ، والبعض الآخر يجلس على الأرض محدقاً بصمت في الطريق . . وفكر سليمان . . سيذهب الآن لينام ، ليشبع نوماً حتى الثانية ، أو الثالثة ، ثم يقوم بحلاقة ذقنه ، ويغسل شعره ، ويقرأ الصحف حتى الليل ، حيث يخرج من جديد كالخفاش ليستأنف حياة الليل القذرة ، وليحدث ضحايا جدداً عن الحياة ، والتجارب ، وعن الغنى في الأحاسيس . ونظر إليه أحد العمال وخيل إليه أن في عينيه نظرة متهمة .

– كم الساعة ياأفندي ؟

– الرابعة والنصف!!

– اف . . نمنا كثيراً ، قد تكون السيارة ذهبت . الليل قصير .

وتقدم منه رفيقاه وهما مايزالان يتراشقان التهم :

– أنا لاأشك مطلقاً أنك حمار .

–وقح!

وكاد سليمان يبكي وهو ينظر إليهما يتناقشان بكل هذه الحماسة وهذا الجد . أيمكن أن ينطفىء كل هذا بعد قليل ؟

- جريس . .
- نعم سليمان .

وأحس بشعور من يقفز في الهاوية . وجمّع نفسه ولهث :

- لقد كذبت عليكم . لم يكن هناك حب في العشرين ، ولم تكن هناك زينب . لقد كذبت عليكم في منة قصة مثلها!

وساد صمت عميق مقلق ، وأطرق سليمان برأسه وأحس أن عيني الآخرَيْن تأكلانه بدهشة .

- إنني . . إنني أكذب دوماً ، أكذب بسرعة . أنا إنسان حقير . . يجب أن نفترق . ابدأ طريقك بنظافة وبساطة ياجريس . يجب أن نفترق ياجريس . أنا خفاش أعمى ، لانفع يرجى مني ، مطلقاً . . مطلقاً .

وترك الاثنين بدون وداع يقفان شاخصين إليه ، وعلى وجنتيه الجافتين كانت دمعتان محرقتان حقودان تنحدران ببطء . إنه يحس ببعض الارتياح ، فقد كانت المرة الأولى التي يعترف فيها لإنسان ، بأن كل مايقوله هو استجلاب لتصفيق تافه ، يقوي في نفسه الثقة بها . ومع ذلك أحس بالرضى ، وشعر بشيء مظلم أسود ينفصل عن نفسه ، وبموجات طفولية رائعة تملأ كيانه . وأدهشته هذه الراحة .

وسمع وقع خطوات وراءه فلم يلتفت بل تابع سيره مطرقاً ، واقتربت الخطوات مترددة ، ولمح ظل جريس يحاذيه ، ومشى الاثنان عدة دقائق صامتين :

- جريس . لماذا جئت ؟
- لن أتركك .
- لكني شخص كذاب ، مزوّر ، لاأريد مطلقاً أن أوثر عليك .
- لم تكن في أية لحظة مزوراً أو كذاباً . لقد كنت تقول أشياء عظيمة . أنا لاأشك مطلقاً أنك شخص رائع .
- ولكني مع ذلك كنت أكذب ياجريس .
- أعرف ذلك تماماً .
- ولكني مع ذلك طيب ياجريس .
- أعرف ذلك أيضاً .

واندفعا فجأة في عناق حار ، وكان سليمان يشعر بيد جريس المرتجفة وهي تحيط ظهره وتمسح على كتفه .

- أتظن أنني لاأزال نافعاً ياجريس ؟
- أنا لاأشك في ذلك مطلقاً ياسليمان .
- وتحبني ياجريس ؟
- يجب أن لاتشك في ذلك مطلقاً ياسليمان .

فهرس

صدر للمؤلف

درب إلى القمة	بالاشتراك مع رابطة الكتاب السوريين (مجموعة قصص)
وفي الناس المسرة	مجموعة قصص
سلاماً يافارصوفيا	انطباعات وقصص
شتاء قاس أخر	مجموعة قصص
صياح الديكة	مسرحيات

القصص العشر ، جميعها ، معنيّة بالهاجس العامّ الذي يبلغ مكشوفيّةً صارخة حيناً ، في «المهجم الرابع» و «محطة السبعا وأربعين» و «من يوميات ثائر» ، أو يخفت في ما يشبه الهذيان حيناً آخر ، كما في «الخفّاش يفتح عينيه» ، و «مشروع إنسان» .

غير أن الهاجس العام يظلّ مشخّصاً . إن منصور الميداني ، الفرّان ، وهو المنقذ الفني لقصة «المهجم الرابع» ، إذ تجسّدت ، فيه ، وبشخصه هو ، المأساةُ المخيِّمة على معتقلي المزة ، ولولاه لكانت القصة مجموعة تخطيطات سريعة لعدد من المعتقلين .

وفي «من يوميات ثائر» وهي من أجمل قصص المجموعة (اللغة عنصر جمالٍ أساسيّ هنا) نجد الشيخ الأشمر حيوياً في تفاصيل حركته ، وبين أصحابه التسعين من «شباب الميدان» . . إنها الثورة مشخّصةً .

إن جوقة سعيد حورانية ، متعددة الأصوات .

دار المدى للثقافة والنشر